صالح مرسي

الكذّاب

الطبعة الثانية
١٩٨٨

تصميم الغلاف الفنان : عبد الغنى أبو العينين

الى تلك السنوات التى زخرت
بالأمل ... ذهبية الزمن ... فى الستينيات ،

[illegible]

أيها السادة ... لاتصدقونى . أنا كذاب ..

بلا محاكمات ولا قضاة ولا حتى اتهام يوجه إليّ • • • أنا أسلم لكم نفسي ، وأعترف بالتهمة ... فأنا كذاب ..

كذبت على الناس ، وعلى نفسى ... وعندما وجدت الخلاص ، رحت أكذب دون أن أدرى .

لكن صدقونى ـــ قبل أن تضعوا القيد فى يدى ، وقبل أن تلقوا بى فى غياهب التهم السوداء ـــ لقد كنت أبحث أثناء كذبى عن الصدق ...

أرى منكم من يضحك ، ومنكم من يبتسم ، ومنكم من يقول إني مجنون ، ومنكم من رفع حاجبيه دهشة ، واعتدل فى جلسته ، وراح يدمدم بصوت رزين : « ماذا تريد أن تقول ؟! »

أريد أن أقول إني كذاب ... وهذه هى حيثيات الحكم .

١ — بدا لى ميدان السيدة زينب فى ذلك الوقت المبكر ، وكأنه حلم لاحقيقة . وقد يكون الأمر كذلك فعلا ، لأنى كنت اغادر الدرجة الثانية فى أتوبيس رقم ١٢ وعيناى نصف مغمضتين ، دون أن تفلح رطوبة الصباح التى كانت تغسل وجهى برفق ، أن تزيل عن رأسى ذلك الثقل النائم الذى كنت أشعر به منذ أن استيقظت .

فمنذ سنوات طويلة لم أر الصباح الا وأنا ذاهب الى الفراش ، وقد أكون قد قضيت الليل فى عمل ، وقد أكون قضيته فى لهو ، الأمر سيّان ... لكن المقطوع به أن استيقاظي في الخامسة والنصف صباحاً كان يعتبر حدثا جللا وتغييرا عظيما فى حياتى ، أنا الصحفى والاديب الذى يقرأ الناس عصارة مخه وتفكيره على صفحات الورق .

كنا فى شهر أغسطس ، وشمس أغسطس حامية فى القاهرة حتى فى عز الليل ، فهى منذ الصباح تلهب المدينة بنارها حتى المساء ، ولا تغرب الا بعد أن تحيل كل شىء الى وهج نادرا ما يفلح جو الليل فى ترطيبه أو تبريده ... ما علينا ، فقد وقفت وسط الميدان أتنسم الهواء وأحاول الاستيقاظ ، ومن خلال جفونى النصف مغلقة ، كنت أرى الحياة تدب بقوة وكأنها استيقظت منذ ساعات طويلة ... باعة البليله والفول تناثرت

عرباتهم هنا وهناك ، محلات الكشرى والحليب فتحت أبوابها على مصراعيها ... الفتيات يبدون وكأنهن سقطن توا من فروع أشجار خضراء مورقة ، على الوجوه ندى رطب سمح ، وفى العيون سهوم ملىء بالرضا ، وعربات الترام تزعق ، وأبواق الاتوبيسات تعزف مع هدير موتوراتها لحنا صاخبا .. أصوات الناس وتحياتهم تسبح فى جو المكان بألفة وكأنها تعودت أن تفعل ذلك منذ آلاف السنين .

على الفور أحسست انى غريب ، أو سائح هبط أرضا جديدة عليه وراح يتفرج .

فى نفسى شىء من الرهبة ، وفى رأسى ألف فكرة وفكرة ، وأمامى عبر الساعات القادمة ألف احتمال واحتمال ... ترى . هل أستطيع؟ !

سؤال كان يسيطر على الجزء الغالب من تفكيرى ... دبيب الحياة يزداد في الطريق لحظة بعد لحظة... على الجانبين عمارات بعضها شاهق وبعضها ضئيل ، بعضها جديد وبعضها مهدم قديم ... فى وسط الشارع تمتد قضبان الترام وعلى جانبيه حديقة خضراء كالحة اللون ، من حولى وأمامى تجرى سيارات الاتوبيس ، ودرب الجماميز يقترب كلما خطوت خطوة ... على يمينى شادر أخشاب هو العلامة التى يجب أن أدور من خلفها لاخترق خرابة توصل الى زقاق لست أعرف اسمه ، فاذا انثنيت الى اليسار ، أصبحت فى الطرف البعيد للدرب الموعود .

هكذا علمت الطريق بالأمس ...

وبالأمس كان الحال غير الحال ، كنت أرتدى ملابسى وأركب سيارة

صديق وأرتجف انفعالا بالتجربة المثيرة ... بالأمس فقط بلغ بى الاعياء حدا جعلنى أقدم على ما كنت مقدما عليه ، كان رأسى مليئا بالخطب الرنانة ، عن الشعب والناس والكفاح والعرق و ... و ... وحقيقة كنت حائرا ، فى داخلى احساس مركب من ملايين الانفعالات ، غير أنى لا أعرف له طعما أو هدفا ... هل هو حق أم باطل ؟ ... هل أنا صادق أم كاذب ؟ ...

فى الليالى الطوال ، ووجوه الأصدقاء محمرة بالشراب ، وأصواتنا تعلو على بعضها البعض حديثا صاخبا عن الشعب والناس ... احساس عميق بالضياع يمسك بتلابيبى ، نحن مذنبون ... نحن أبناء جيل تعس ... كل ما حولنا — يا جماعه — يطحننا بلا رحمة ... ماذا نفعل ؟ ... علينا أن نكتب بصدق ... علينا أن ... أن ... وأ ..

احساس عميق بالغثيان يفور فى أعماقى ليطفو على السطح صمتا أو جعيرا يتبدد فى الهواء ، فهو والصمت سواء ..

أحدنا يصرخ فى انفعال الأستاذ العالم ببواطن الامور : « انزلوا للشعب .. اكتبوا عن الناس ! » ... وما رأيته يوما الا غارقا فى الورق أو الجعير : هذا صح وهذا خطأ ... حتى كانت ليلة ... ليلة لن أنساها ما حييت ، ليلة كادت أن تكون نقطة تحول فى حياتى ... كانت أبخرة القلق والحيرة قد تراكمت فى صدرى وازداد تضاغطها وفورانها ، ليلة تداخلت فيها المرئيات والأشياء والحقائق جميعا فرحت أتخبط بحثا عن مخرج ، نهضت ليلتها واقفا وأنا أصرخ فى الصحاب :

« عايز اشتغل ... عايز اشتغل ! »

كنا نجلس فى بار من تلك البارات التى تزدحم بها شوارع وسط القاهرة ... حيطانة عالية كسور سجن قديم ، لونها أصفر باهت ، رُصع فضاؤها بعديد من الاعلانات الساذجة عن أنواع خمور تهرى الكبد ... أمامنا زجاجات بيرة وصل ثمنها الى أقصى ما كنا نملك نحن الخمسة ... كنا خمسة ؟! ... لا ... أربعة فقط ... عادل وصابر ومحمود وأنا ...

وقفت ليلتها وقد بلغ تأثير البيرة علىّ أقصاه ، ووضعت يدى فى جيبى سروالى ، وفردت قامتى النحيلة ، ولابد أنى بدوت فى تلك اللحظة كعود قصب بزعزوعته ، فأنا — أيها السادة — طويل نحيل ، رأسى صغيرة ، وعيناى ضيقتان ، وأنفى طويل ، أنف يمتد من بين العينين الضيقتين فى استقامة تصل حتى خط التقاء الشفتين .. أما ساقاى فطويلتان قليلا ، ومقاس حذائى ٤٣ ، مما يؤكد أن قدمى كبيرتان بالتالى ... باختصار — أيها السادة — أنا مخلوق لست دميما جدا ، لكننى أيضا لست جميلا بحال من الاحوال !!

المهم انى ما كدت أقف ليلتها فى ذلك البار وأنطق بجملتى هذه ، حتى راح أصدقائي الثلاثة ينظرون إلىّ بدهشة، عيونهم محمرة ووجوههم إما غاضبة أو لا مبالية ، نظرت حولى فاذا الناس فى البار الصغير غارقون فيما يغرقون فيه كل ليلة ... فهذه الوجوه هى نفس الوجوه التى نراها كلما ذهبنا الى ذلك البار ... بل ان فيه من نعرفة جيدا ونعرف مشاكله لكثرة سماعنا لها ... كان فيهم من يسلينا مثل عبد الغنى البواب ، ومنهم من يثير

في نفوسنا الشفقة كمرزوق أفندى المحال الى المعاش منذ سنوات ثلاث ... و .... وباختصار مرة أخرى ، لم نكن غرباء عن المكان أو رواده ، ولم يكن المكان أو رواده غرباء علينا ، لذلك ، كنت أستطيع أن أفعل ما أشاء ، وأتصرف كيفما أريد ... فالناس هنالك يعرفون أننا فنانون ، وأننا نمارس الكتابة فى المجلات والصحف ، واننا نكتب قصصا ... الناس هنالك يعرفون ذلك ، ولكن ليس معنى هذا انهم يقرأون لنا أو يتتبعون شيئا سوى شجارنا وزعيقنا ، بل معناه أنهم لابد وأن ينظروا الينا على اننا صنف معين من الناس ، صنف غير عادى ، له الحق فى أن يفعل فى بعض الأحيان مالا يمكن أن يفعلة العاقلون ... ولقد انحنيت يومها الى الأمام وأنا أرد على نظرات الدهشة فى عيون أصدقائى بنصف همس مضطرب :

« ايه رأيكم فى الفكرة دى ؟ ... باقول عايز أشتغل ، عايز أعمل حاجة !! »

تململ عادل فى جلسته ، ومط شفته السفلى وهو يقول فى عناد طبيعى :

« وايه اللى موقفك كده ، ما تقعد ! »

وسألنى محمود وكأنه يصحو من النوم لتوه :

« عايز تشتغل ايه ؟ ... ما انت بتشتغل ! ... انت باين عليك سكرت ! »

وأنا أنبهكم هنا — أيها السادة — حتى لا يختلط عليكم الأمر منذ الآن انبهكم الى اننا — نحن الاربعة — نادرا ما نتفق على شىء أو رأى اتفاقا حاسما ... فكل منا يعيش فى واديه بعيدا تماما عن الآخرين ، لكن

... تهولا كان يربطنا بعضنا بالبعض ، شىء أقسم وأوكد لكم ان أحدنا ... يعرفه ولا يدريه ... فلا الأدب جمعنا كأدباء ، ولا المهنة جمعتنا ... صحفيين ... بل انى أتطرف فى القول وأتحمل المسئولية أمامكم ... ماليس فى أحدنا صفة واحدة موجودة فى واحد من الآخرين ... ولقد حيرنى الأمر كثيرا ، غير أنى متأكد تماما أننا جميعا كنا مشتركين فى هذه الحيرة وان لم نتصارح بها ، أو يجرؤ أحدنا — رغم جرأتنا التقليدية فى النقد ! — على الافصاح عنها !!

هو نوع من الحب غريب ، ينمو فى النفس نتيجة لشىء غامض ، ثم يصبح الأمر فى النهاية واقعا لامفر منه .

ما علينا ...

واعذرونى لو شططت بكم فى الحديث ، فقد حدث ليلتها أن راح عادل يردد وهو ينظر الى قامتى المحنية الى الأمام ، ويحملق فى عينى الحمراوين بعينين أشد منهما احمرارا :

« ما تقعد وتقول لنا انت عاوز ايه ؟ .. عاوز تقول ايه ؟ .. ايه ! »

وتململ صابر فى جلسته ، وامتدت يده برزانة وتؤدة نحو كوبه ، ثم أقامها على شفتيه ، وأعادها الى مكانها من المائدة قائلا :

« يا لله بينا يا جماعه ! »

قفز محمود في مكانه ملبيا رغبة صابر ، لكنه لم ينهض ، بل قال وهو يشير نحوى :

« مش لما نشوف الأول هو عايز يقول ايه ؟ »

وقال عادل وأنا أعود الى مقعدى من جديد :
« طيب نشرب كمان قزازه ! »
ووضع صابر يده فوق فوهة كوبه قائلا :
« أنا استكفيت ! »
وقال محمود :
« وأنا كمان ... »
وأصر عادل على موقفه :
« وماله ... نشرب كمان علشان نعرف نتكلم ... دهدى ! »
قلت مستنجدا :
« ايه رأيكم فى الفكره !! »
قال صابر :
« أنا باقول .... »
وهتف محمود مقاطعا :
« عبد الغنى البواب وصل ... »
وابتسم عادل معلقا :
« امبارح كان مطينها خالص ... تعرفوا انه متجوز ثلاثه ! »
فز صابر فى مكانه دهشا :
« تلاته ؟ ... ياخبر ؟ ... »
وقال محمود وهو يتطلع ناحية عبد الغنى :
« مرزوق أفندى طلب له كاس ! »
« وهو الجواز من تلاته وحش ! »

« ايه رأيكم فى الفكره ؟ »
« يا سلام ... دول صحاب قوى النهارده ! »
« برضه ياشيخ تلاته كثير ! »
« يا الله بينا يا ... ... »
« مخالى .. قزازه بيره ! »
« أيه رأيكم فى الفكره ؟! »
« أنا ماعييش فلوس ! »
« طب وازاى معيشهم ياوله ... كل واحدة فى بيت ؟! »
« يا جماعة ... . »
« لازم معيشهم مع بعض . جدعنه . أمال اللى متجوز أربعة ومرا ... ... »
« البيره يا بهوات ! »
« أنا ماعييش فلوس .»
« ما تحطليش أنا ... أنا استكفيت ! »
« مش مهم الفلوس ... ناخذ على الطباشيرة ! »
« يا سلام يا ولاد ... طب ودينى الواحد ... »
آهم بدأوا يتخانقوا ... مرزوق افندى ..... »
« يا جماعة ... أيه رأيكم فى الفكرة ؟! »
« فكرة ايه يا جدع انت ؟! »
و ... وسواء أطال بنا الوقت أم قصر ، فقد ناقشنا الفكرة فى النهاية ... وصاح أحدهم ــ صدقونى ــ لست أذكر الآن من هو :

« ما انت بتشتغل ... مش حاتبطل شغل الجنان بتاعك ده ؟! »

« مش ده قصدى !! »

« أمال عاوز تقول أيه ؟ »

والحقيقة انى لم أكن أدرى ما الذى كنت أريد قوله فعلا ... كل ما هنالك أن الفكرة هبطت على رأسى فجأة وبلا مقدمات أو أية تفاصيل حتى ولو كانت صغيرة ... ومن أشد عيوبى — أيها السادة — أنى أومن بأية فكرة تطرأ لى بهذه الطريقة ، هو شىء لا تفسير له عندى ، هو ايمان مطلق غيبى بهذا الاحساس ... غير انى ، من خلال المناقشات بينى وبين الغير ، ومن خلال التجربة نفسها ، أستطيع أن أعثر على التفاصيل المطلوبة ... لذلك ، فقبل أن أسمع منهم هذا السؤال : « عاوز تقول ايه ؟! » ... لم أكن قد خطوت ولو شعرة عن المكان الذى احتلته الفكرة فى ذهنى ... كنت طوال تلك الدقائق أتملى فى وجوههم ، وأتتبع أحاديثهم ، فأشعر وكأنى كرة يتقاذفونها فيما بينهم ، كنت أتبعهم جميعا ، عادل بعينيه البراقتين وحديثه المتدفق المتحمس ، وصابر بوجهه الصغير وصوته العجوز النبرات ، ومحمود بمتابعته لما يجرى بين اثنين من السكارى بعين ، ومتابعتنا نحن بالعين الأخرى ... ولولا انهم جميعا صمتوا فجأة — وكان كل منهم قد انتهى من حديثه — عندما ألقى هذا السؤال : « عاوز تقول أيه ؟! » ، لما وجدت نفسى مأخوذا على غرة ، مضطرا الى الاجابة ، ليس أمامهم فقط ، ولكن أمام نفسى أيضا .

« أنا حاشتغل قهوجى ! »

هكذا قلتها ... وهكذا خرجت من فمى دون وعى أو تدبير سابق ...

ولست فى حاجة لأن أذكّركم بطبيعة الحال أننا اختلفنا ... وأن أصواتنا علت فملأت البار حتى نسى مرزوق أفندى وعبد الغنى البواب خلافاتهما التقليدية وراحا يتابعان نقاشنا ، وأن حديثنا احتدم مما دفع أحدنا وسط طوفان الكلمات الملتهبة بالحماس أن يطلب زجاجتين أخريين من البيرة دون أن يكون مع أحدنا ثمن حتى لواحدة منهما ... وأننا جميعا تجاهلنا هذه الحقيقة ، فالمناقشة أثمن ، والفائدة هنا أعم ، حتى ولو قلنا للرجل : « الحساب بعدين ! » ... المهم انى فى نهاية الليلة ، ونحن نغادر البار سائرين فى الشارع الطويل الخالى ، وسط ظلال الليل الدامسة ، والحديث بيننا لا زال دائرا ، وجدت الفكرة قد اختمرت فى ذهنى بكل تفاصيلها ...

* * *

فما المانع لو عملت جرسونا لفترة من الفترات ؟ ... ولتكن اسبوعا ... أن أجرب كيف يعيش الكادحون من أبناء الشعب ... سوف يكون موضوعا مهما للمجلة التى أعمل بها ، سأقدم فيه شخصيات ونماذج — اوريجينال — من ابناء الشعب ... صدقونى هكذا كنت أفكر ، غير انى كنت افكر أيضا — وهذا هو الوجه الآخر — فى مدى الاثارة التى سيكون عليها هذا الموضوع ، كيف سيتحدث الناس عنه ، كيف سيرسل القراء خطاباتهم الى المجلة ... انه خطوة أخرى — على أى حال — نقدم

فيها للعاملين فى الصحافة أمثلة وأشكالا جديدة للعمل الذى نمتهنه !!

لكننى فى اليوم التالى لم أصنع شيئا ، وفى السهرة التالية لم نفتح الموضوع وشربنا زجاجات بيرة وصل ثمنها الى أقصى ما نملك نحن الأربعة ، ثم طلبنا زجاجتين أخريين اثر مناقشة حامية دارت حول موضوع هام آخر ، وأجلنا الحساب برمته الى أول الشهر !!

غير أن الفكرة التى نبتت فى تلك الليلة على سطح تفكيرى المضطرب ، كانت تنمو وتزهزه وتثمر فى ذهنى مئات الصور لعشرات الأشياء الجميلة ، ووجدتنى ذات صباح أدخل على رئيس التحرير ، أقف أمامه وأحاول النفاذ من سطح زجاجتى نظارته الطبية الى حيث تكمن عيناه الساهمتان اللامباليتان .

« حاشتغل قهوجى ! »

ابتسم ولم يرد ...

« ايه رأيك فى الفكرة دى ؟ »

القلم فى يده ، والورق أمامه مسطور بكلمات وكلمات ، عقله بعيد ، وعيناه ساهمتان وراء ما يفكر فيه ، وابتسامته لا تعنى شيئا على الاطلاق ... لكنه بدا كمن انتبه فجأة لوجودى ، فقد خلع نظارته وقال فى اقتضاب :

« ازيك ! »

« ماقلتليش أيه رأيك فى الفكرة ؟ »

راح يعبث بعينيه وأصابعه فى الورق المتناثر أمامه ، ثم مالبث أن التقط عدة ورقات مد بها ذراعه نحوى وهو يقول بنفس الابتسامة :

« خد اقرأ القصة دى وقول لى رأيك فيها !! »

لحظتها هويت من قمة الاثارة والخيال ، لترتطم افكارى العديدة بحماسى العظيم بأرض الواقع ، أحسست بالبرودة تسرى فى كل شىء ، برودة سرت أول ما سرت الى الفكرة ذاتها ، فلا بد انها سخيفة ، ولابد أنه سيقول لى : طيب ، بغير اقتناع ... ذلك أن من عيوبى الأخرى — أيها السادة — انى افكر — اذا ما فكرت — فى كل المقدمات ، وأصل الى النتيجة فى النهاية ، واقتنع بها ... ثم لا احاول أن أعيد الكرة اذا ما عرضت الفكرة على الناس ، أنا افاجئهم بالنتيجة فورا ودون مقدمات وكأنهم كانوا يفكرون معى !

هذا ما حدث بالضبط فى ذلك اليوم ...

فلم يكن مرور الايام وانشغالى بالاحاديث مع اصدقائى وشرب البيرة والسهر كل ليلة ، ليبعدنى عن تلك الفكرة الغريبة التى كانت قد انغرست فى ذهنى وضربت جذورها فى أعماق تفكيرى ... أكثر ما كان يعذبنى أنى أريد أن أصنع شيئا ذا قيمة ، اكثر ما يميتنى ويقضى على بالضمور أن أحس فى صدرى ذلك الخواء القاتل الذى ينتابنى بين الحين والحين ، مضت ليال طويلة كنت أفكر فيها كيف أعمل جرسونا ، وبأى شكل ، وماذا سأفعل ، والنتيجة التى سأصل اليها اذا ما سارت الامور فى طريقها الطبيعى واستطعت أن أعيش الناس بعذاباتهم وقلقهم وفقرهم وحزنهم وحياتهم ... كنت أطل على التجربة من مسكنى الكائن بالدور العاشر فكأنى أطل على عالم خرافى ملىء بالاشياء الغريبة ... مع الأيام ، امتلأ ذهنى بالتفاصيل ، ودخلت على رئيس التحرير فى ذلك الصباح بعد ليلة مسهدة طويلة ، كنت

متحمسا يغلى فى صدرى ذلك الاحساس اللذيذ بأن فى الافق شيئا يمكن أن أصنعه ... لذلك سرت البرودة فى كل شيء عندما قدم لى القصة وطلب منى أن أقرأها وادلى له برأيى فيها ... امتدت يدى لتأخذ منه القصة بنصف وعى ، وتراجعت بجسدى فى المقعد الطويل أمام مكتبه ، رحت للحظات أردد النظر بينه وبين الأوراق التى كنت أمسك بها وفى أعلاها عنوان هو : السمكة الغائبة ... كدت أفتح فمى وأسأله عن رأيه فى « الفكرة » أولا ، لكن ابتسامته التى اتسعت فجأة ، وصوته الذى كان يردد : « اقرا القصة دلوقت على طول أحسن صاحبها جاى ولازم أقول له رأيى فيها ! » ... ابتسامته هذه وجملته هذه استوقفتانى فابتلعت السؤال ورحت أقرأ القصة !

* * *

ولست أذكر ــ أيها السادة ــ موضوع القصة ، بل أنى لا أذكر هل أعجبتنى أم لم تعجبنى ، وعلى كل فهذا لن يفيدنا فى شيء ... فالذى اذكره الآن جيدا ، أنى قرأت القصة وقلت له رأيى فيها ، وان رئيس التحرر كان قد قرأها هو الآخر ، لكنه أراد أن يتأكد من حكمه عليها ، فقضية الصدق تشغله ... واذكر أيضا ان صاحب القصة جاء ، وأنه جلس قرابة نصف ساعة يتحدث مع رئيس التحرير فى أشياء عديدة ... كل هذا وأنا انتظر اللحظة التى يصدر فيها رئيس التحرير حكمه على « الفكرة » !!

المهم ...

خرج الرجل أخيرا ، والتقت عيناى بعينى رئيس التحرير ، فبادرته قائلا بسرعة :

« أيه رأيك فى الفكرة ؟! »

قطب ما بين حاجبيه ، وجمد ابتسامته على شفتيه وهو يقول :

« فكرة أيه ؟! »

ومن عيوبى الأخرى ــ أيها السادة ــ انى لا استطيع الانتظار حتى ... الوقت المناسب لعرض فكرة أو أبداء رأى في مشكلة ، فكل الأوقات تبدو لى مناسبة ، وعلى كل فقد قلت له فى ذلك اليوم :

« حاشتغل قهوجى ! »

واطلق الرجل ضحكة غريبة ، مجرد غمزة صوتية لا هى جادة ولا هى ساخرة ، لنغمتها ألف معنى ومعنى ، ثم اضطجع فى مقعده وهو يقبض على قلمه بكل يده قائلا :

« وحاتبدأ امتى ؟! »

بعد ثوان خرجت من مكتبه ... وما حدث أثناء هذه الثوانى كلام عادى، اقتراحات اطلقها هو في بعض الأحيان بحماس شديد، وفى أحيان أخرى بتعقل أشد من الحماس ، وهو فى كلا الحالتين يعبث بالقلم فى الهواء ، يكتفى أو يضيف أو يوافق بكلمة لا تزيد .

ومضت بعد ذلك أربعة أسابيع ..

لم اشتغل قهوجيا ، ولم اغادر مكتبى ، ولم أغير عاداتى ، ولم أكف عن السهر والنقاش ، ولا عن شرب البيرة ... لم يتغير شيء ، أبدا ، أبدا ، أبدا ...

فى أعماق شيء يغلى ، شيء معذب ... وفى حياتى أشياء كثيرة تثير

القرف ... الصدق أمامى يمتزج بالكذب ، فلا أعرف أيهما أؤمن به واتبعه .. والفكرة تذوب فى خضمّ التفاهات اليومية .... وجدت الناس حيالها فريقا من اثنين : أما مهللين ، واما مستسخفين ... صاح بى أحد الزملاء فى المجلة :

« ياأخى أكبر بقى واقعد على مكتبك واكتب ! »

وقال آخر وعيناه تطقان بالفرح :

« يا سلام يابنى ... دى حاتبقى قنبلة الموسم ! »

لكن لا هذا ولا ذاك ، لا هؤلاء ولا اولئك كانوا يفهمون ما أعنى ... الكل نظر للتجربة على انها عمل مثير ، شىء غير عادى ، صحفى وكاتب وأديب يعمل جرسونا ، ابتسامات السخرية تساوت عندى بصيحات الاستحسان ، احسست أنى وحدى أعيش فى عالم خاص ، هل استطيع حقا أن أغوص من خلال هذه التجربة فى اعماق الناس وان أعيش مشاكلهم والآمهم ؟ ... هل ... هل ..

دعونا ــ أيها السادة ــ من الخطب الرنانة ... فهناك نتيجة واحدة أحسستها بشكل واضح وحاسم ولا يقبل النقاش ولا الجدل ، هذه النتيجة هى أنى انسان منفصل .

منفصل عن ماذا ؟!

لاعرف بالتحديد ... كل ما اعرفة وأحسه أنى منفصل عن شىء هائل ضخم أنا مجرد قطعة منه ... حنين طاغ يستولى على كيانى كله نحو هذا الشىء ... احساس كالعطش أو كالجوع ... لكن آلامه تزيد آلاف

مرات عن آلام العطش أو الجوع .

وكلما ازداد احساسى هذا ، كلما اختمرت الفكرة فى ذهنى أكثر ... وبدت لى على البعد مريحة أشد الراحة ، كأنى كنت على موعد مع شىء رائع ، كأنها واحة أسعى اليها لتروى عطشى الدائم الى شىء مجهول ... أحببت الفكرة حتى تساوى حبى لها مع اقتناعى بها ، ثم زاد الحب وطغى على الاقتناع ، فخفق قلبى ذات ليلة وأنا انهض من فراشي ، جفانى النوم وخاصمنى ، فنهضت مسرعا ، وارتديت ملابسى ، وهبط الى الشارع كالمجنون بعد أن انتصف الليل بساعة أو يزيد قليلا .

٢ ــ فى أول درب الجماميز ــ من ناحية شارع الخليج المصرى ــ جامع غريب فى بنائه ، له مئذنة منفصلة عنه، هو فى ناحية ، والمئذنة فى ناحية أخرى ... بينهما حارة اسمها حارة السادات .

ولا أحد من أهل الحى يعرف اسم الجامع الحقيقى ، طغى تصميمه الغريب على اذهان الناس ، فاطلقوا عليه اسم « جامع بلا مدنه ، ومدنه بلا جامع » ... وفى المسافة ما بين أول الدرب وهذا الجامع ــ هذه المسافة التى لا تزيد على المائة متر ــ وجدت نفسى أقف نصف ساعة مع صديقى الدكتور سمير ، وهو صديق لا يعرف الثلاثة الآخرين الآ عن طريقى ، ولا يعرفة اصدقائى الآخرون الآ بالسمع منى ... وان كانوا قد رأوه عدة مرات ، وكان هو أيضا قد رآهم وجلس معهم عدة مرات !

وصديقى الدكتور سمير ــ ايها السادة ــ لا علاقة له بالصحافة أو الأدب ، هو لا يكتب القصة ولا الشعر ولا يعمل صحفيا ، غير أن لديه

هذا الطب مواهب عديدة ، فهو من هذا النوع من الناس الذى يجيد تقصى الأخبار والاستماع اليها وروايتها بشغف شديد ، هو صفحة أخبار متنقلة فى جريدة تعتمد على اثارة القارىء بأية وسيلة ... فما ان ينتهى سمير من عمله فى العيادة ، حتى يلقى بنفسه فى سيارته الأنيقة الخضراء ويطير الى أقرب صديق له ــ وغالبا ما يكون هذا الصديق هو أنا ــ ليسأله عن آخر الأخبار ، ويقص عليه آخر انباء الاشاعات والفضائح .

اكثر ما يرضيه فى الحياة ، أن يسبق الآخرين بنبأ جديد، أو أن يرتفع حاجباى دهشة عندما يلقى الى بنبأ مثير ... ساعتها يصيح جذلا كطفل صغير :

« أمال بس عاملين لى صحفيين على الفاضى ؟! »

صديقى هذا ــ أيها السادة ــ طبيب نابغ فى مهنته ، يكافح ويدرس ويسعى نحو حياة أفضل له هو نفسه ، اذا زاد سعر البنزين قرشا ، راح يصرخ من الغلاء الذى استشرى وأمسك بتلابيب البلد وراح يبحث عن الأسباب الخفية وراء الأزمة الاقتصادية التى سنقع فيها بعد حين ... واذا ارتفع ثمن السيارات كان هذا دليلا على أن القيامة ستقوم ، وان اقتصاديات البلد آخذة فى انهيار أكيد وان ... و ... وما علينا ، فما أن سمع سمير بالفكرة عندما عرضتها عليه ، حتى ارتجفت عضلات وجهه المكتنز الطفلى وهو يقول :

« دى فكرة ممتازة جدا ... »

وما كدت افتح فمى بكلمة ، حتى صاح فى انفعال :

« دى ... دى حاتبقى قنبلة الموسم ... تعرف يابنى . »

وظل سمير متحمسا أشد الحماس طيلة الأسابيع التى مرت منذ أن عرضت عليه الفكرة ، حتى تلك الليلة ، عندما دق جرس التليفون فى بيته بعد منتصف الليل ، ووصل اليه صوتى وأنا أقول :

« حالة ولاده عسره يا دكتور ... الحقنى أنا فى عرضك ! »

بعد دقائق كان الدكتور سمير يقف أمامى بقامته المديدة الفارهة ، وجسده الممتلىء وعلى وجهه ألف علامة للجد والرزانة ...

ولقد تعود صديقى على مثل هذه النزوات ... ذلك اننا نحن معشر الفنانين والأدباء ، لا نعترف بالزمن ، فلا صباح عندنا ولا مساء ولا ليل ولا فجر ، اننا — أيها السادة — قوم بلا شك ممتاوزن عن بقية خلق الله ، ننام وقتما نشاء ، ونصحو وقتما نشاء ، نعيش يومنا والناس نيام والشوارع خالية ، ونغط فى النوم بينما الحياة تدب على وجه الأرض بكل عزمها ... لذلك ، فان اصدقاءنا من غير الفنانين والادباء يعلمون عنا هذا الشذوذ المستحب الباهر ، بل ان صديقى سمير مثلا ، لا يهمه أن يدق التليفون بجوار فراشه فى الثانية أو الثالثة صباحا ، ولا يهمه أن يكون قد انتهى لتوه من عمل متواصل بذل فيه قصارى جهده ، انه ما إن يسمع هذه الجملة : « ولاده عسره يا دكتور ! » ، حتى يسرع كالمنوّم فى ارتداء ملابسه من جديد ، يقفز من فراشه فى نشاط وكأنه تلقى نداء عاجلا من مريض فى حالة خطرة !!

وما أن وصل سمير ليلتها ، حتى بادرته بقولى :

« ياللا بينا ندور على القهوة ! »

وبعد ثوان كنا ننطلق بسيارته ونحن نضرب فى شوارع القاهرة على غير هدى ، كنا نبحث عن مقهى ملائم للقيام بالتجربة فيه .

هل انا مجنون ؟!

ربما ...

وسواء وافقتم أم لم توافقوا — أيها السادة — فأنا شخصيا أرى أن بى مسا خفيفا ... إذ كيف يفعل انسان عاقل ما فعلته أنا فى تلك الليلة ؟ ... كنت أطوف بسمير فى أحياء القاهرة الشعبية كلها ، من القلعة الى الحسين الى شبرا الى السيدة زينب ... كنا نطوف بتلك الأحياء والليل يمضى بنا ، وأغلب المقاهى والمحلات بدأت تغلق أبوابها ، ولم أجد نفسى فى واحد من تلك المقاهى العديدة التى شاهدناها ، لكنها كانت جميعها عند سمير سواء ... هلل لعشرات المقاهى فى عشرات الحوارى والأزقة ، وهتف بحماسة لأكثر من مقهى فى أكثر من حى ... كانت عيناه الشبقتان الى كل جديد تنغرسان كالابر فى رأسى بحثا عن ذلك الشيء الذى لم يفهمه فى أبداً ... ذلك الشيء الذى كان يوقعه — دائما — فى الحيرة كلما تناقشنا حول موضوع ، شيء غامض كان يثير فى نفسه القلق حتى يقول :

« يابنى انا خايف عليك ... حاييجى عليك يوم تتجنن ! » ... دون أن يعلم انى كنت دائما اكثر منه خوفا على نفسى ، واشد منه حيرة من احاسيسى ...

وعلى كل فقد وجدنا نفسينا فجأة ودون مقدمات ، ودون أن يقصد أحدنا ، أمام مقهى غريب ، فى مكان أشد منه غرابة !

اللافتة المعلقة فوق جدار منزل تهدم عند ناصية الدرب مكتوب عليها « درب الجماميز » ... الاسم يبدو لى اليفا ، سمعته من قبل أو قرأت عنه ، لكن متى وأين ؟! ... لم أتذكر غير ان سمير تذكر على الفور فقال :

« هنا عاش طه حسين فترة من حياته ! »

كان الدرب يمتد أمامى ضيقا نصف مظلم لمسافة لا تزيد على المائه متر ، ثم ينحبس بعد ذلك ويختنق بين جدارى جامع مترب اللون وبيت قديم ، وقد سيطر الظلام فيما بعد ذلك من امتداد ، فبدا الدرب وكأنه نهر يصب فى محيط مجهول ... كل الابواب مغلقة الا بابا واحد لمقهى خلا من الناس تماما ، مجرد ضوء ينساب من هذا الباب الى أرض الدرب فى استرخاء كسول ، عند الباب عدة مقاعد ومائدة واحدة ، وصندوق صدىء للمثلجات ، ورجل يجلس وحيدا وقد أسند رأسه الى كفه وراح فى غفوة .

بجوار المقهى وعلى صفة أبواب دكاكين مغلقة ، فوقها بيوت نصف قديمة ، بعضها اضيئت نوافذه ، وبعضها اظلمت نوافذه ، والسكون والهدوء يسودان هذه وتلك على السواء .

على الضفة الأخرى من الدرب ، صف طويل من المبانى الواطئة ، كلها دكاكين صغيرة انزلت ضلفها الخشبية فوق رصيف ضيق ، رصفت أجزاء منه بالبلاط المكسور ، وبقيت أجزاء أخرى متربة ، عجنت مياه الرش ترابها فأصبحت طينا صلبا ... ولا أحد بعد ذلك فى الدرب ، لاشىء سوى قطة تسعى فى كسل بجوار فأر كان ينتقل من شق الى آخر فى هدوء وتؤدة المطمئن ، وكأنه يؤدى زيارة عائلية .

همس سمير فى أذنى بصوت يرتجف انفعالا ، وهو يشير الى المقهى

المضىء :

« آهى دى كويسه قوى ... اية رأيك ؟! »

وقبل أرد ، كان سمير يجرنى من ذراعى جرا ، غير عابىء باعتراضاتى الخافته ، وراح يحث الخطى نحو الرجل الجالس وحده .

* * *

ولابد لى هنا — أيها السادة — من التوقف لثوانى ... فليست من عادة صديقى الدكتور سمير أن يجر اصدقاءة جرا دون رغبتهم ، فهو انسان مهذب لا يتعدى الاصول مهما بلغت درجة صداقته للاخرين ... غير ان الذى دفعه الى هذا التصرف فى تلك الليلة ، الذى جعله يجذبنى من ذراعى ويجرنى نحو الرجل على باب المقهى هو ترددى الذى بدا واضحاً فى هذه اللحظات ... ذلك أنى ، ومنذ بدأنا جولتنا فى تلك الليلة ورحنا نبحث عن مقهى ملائم ، منذ أن وجدت نفسى أقترب من التجربة الحقيقية ، ويخرج الامر من دائرة الخيال الى حيّز الواقع ... منذ أن وجدت نفسى أبحث بالفعل عن مقهى أعمل فيه جرسونا ، منذ بداية تلك الساعات وأنا واقع تحت تأثير احساس غريب بالخوف ...

أرجوكم أن تنتبهوا هنا قليلا حتى لا تسيئوا فهم ما أرمى اليه ... فلم يكن خوفى خوفا بالمعنى الدارج للكلمة ، بل كان احساسا غريبا أقرب الى التردد أو الرهبة ... هو احساس كان يدفعنى الى التراجع تدريجيا ، أو ، فلنقل التكاسل والرغبة فى تأجيل التجربة فهذا أنسب ... وقد شعر سمير بذلك ولا شك ، وقال لى أكثر من مرة وهو يرمقنى بجانب عينه :

« ناوى ترجع فى كلامك واللا ايه ؟! »

وكنت أنفى له هذا بشدة أحيانا ، وبسخرية مصطنعة أحيانا أخرى ، وأدخن باستمرار وأحرق السيجارة فى عدة أنفاس !!

وكنت متأكداً أن حماس سمير للتجربة ناتج عن حبه لمصلحتى الشخصية ، ورغبته فى أن أقوم بعمل فذ يؤكد مكانتى كصحفى وأديب أقدم على تجربة جديدة ... لكن حماسه هذا لابد كانت تغذية فى نفس الوقت نار أخرى ، هى نار حبه الشديد لكل غريب ، وعشقه اللامحدود لمعرفة تفاصيل ما ينشر فى الصحف والمجلات من أخبار ومواضيع مثيره !!

المهم ... اقتحمنا ليلتها على الرجل الجالس أمام المقهى خلوته أو غفوته :

« سلام عليكم »

قالها سمير بصوت مهذب لكنه أيقظ الرجل ونبهه الى وجودنا ... ولم يكن هناك أحد غيره ... فى الداخل رأيت عدة مقاعد من القش تناثرت هنا وهناك ... على اليسار « بنك » طويل من الرخام كسر من طرفه جزء إسْوَدّ لونه لكثرة مالمسته الأيدى ... فوقه رصت أكواب وصوانى عديدة ، وخلفه رف أو اثنان ـ لا أذكر الآن بالتحديد ـ خاليان ... وفى الطرف القريب من الباب ، كانت تقوم « النصبة » بوابورها ورمالها الساخنة وخزان مائها العالى ذى الصنبور الصغير ، حولها ، هنا وهناك ، كنكات وأباريق مختلفة الاحجام والأشكال لصنع الشاى والقرفة والقهوة و ... و .. ونهض الرجل لسلامنا متثاقلا منتفخ العينين ، لكن عينيه نشطتا فجأة وه تحملقان فينا بنظرات حادة مليئة بالشك ، نظرات طردت حاجبيه الى أعل

فى دهشة واضحة .

« اتنين شاى وحياة والدك يا معلم ! »

ولم تبارحنا عيناه وهو يدور حول البنك متجها الى النصبه ليعد لنا الشاى ... كانت يداه تعملان فى آلية ، وعيناه مشدودتين الينا ونحن نتهامس ... كنت لحظتها أشعر وكأنى أنتقل من عالم الى عالم آخر مختلف ، بدأت أحس فى تلك اللحظات بالرهبة تجتاحنى ، والشك يساورنى ، وأنا أطوف بعينى فى كل مكان ، فى الداخل والخارج ... نظرت الى أبواب الدكاكين المغلقة ورحت أتساءل : « أى قوم سوف أتعامل معهم ؟! » ... كنت واثقا أن الرجل سيتقبل العرض ثقة جعلتنى أطلب منه الجلوس معنا بعد أن قدم لنا الشاى .

.. وبلا مقدمات ، وكمن يلقى بنفسه فى المياه ليتعلم العوم ، قلت له ضاحكا :

« مش عايز جرسون يشتغل معاك كام يوم ؟! »

لم يبتسم الرجل ردا على ضحكتى ، فقد بدا وكأنه لم يفهم شيئا ... فقط ، ردد فى برود وشرود :

« جرسون ؟ ... كام يوم ؟ ... مش فاهم ! »

فى كلمات سريعة ، عرضت عليه الأمر كله ...

بلا لف ولا دوران ، أنا ياعم صحفى أريد العمل معك لمدة أسبوع ، سبعة أيام تبدأ من صباح الغد ، نظرات الشك فى عينيك لا لزوم لها ، فلست ضابطا للمباحث ولا مأمورا للضرائب وهذه بطاقتى الشخصية خذها واقرأ ما فيها ... واضح انك لا تعرف القراءه ولا الكتابه فلا تطيل

النظر فيما هو مكتوب بعينين حائرتين غبيتين ، ان عينيك لا تتحركان عن صورتى ، تسمرتا عليها فى حيرة وكأنهما تريدان قراءة افكارى ... لن تخسر شيئا ، فسوف أعمل معك منذ الغد وكأنى أجير عندك بحق ... ولك أن .. ...

كنت اتملى فى وجه الرجل وأعرف مخابئه تدريجيا ... استهوتنى ملامح الوجه الغبيه فرحت اتفحصها ... الحاجبان كثيفان ، والعينان نصف مريضتين ، فيهما نظرة ميتة ، والشفتان غليظتان فيهما شره واضح ... الأنف ينسدل من أعلى الى أسفل فى غلظة هرمية الشكل ، له فتحتان واسعتان كانتا تنفثان دخان السيجارة التى قدمتها له بغزارة وحديثى يتدفق وهو صامت ، أحيانا ينظر الى ، وأحيانا تتسرب نظراته الى الباب ومن بعده الى الدرب الخالى وكأنه يخشى أن يدهمنا أحد ، أو كأنه ينتظر أحدا ... فلا فرق فى نظرته بين المعنيين .

انتهيت من كلامى ، ولم ينته هو من ترديد نظراته ما بينى وبين باب المقهى ... سألته فى قلق : « ايه رأيك ؟! » ، وقد بدا لى فجأة ان التجربة ستفشل فى لحظاتها الاولى فلابد أن الرجل لن يقبل مادام الشك قد تسرب الى نفسه ... فبالرغم من كل شىء ، بالرغم من أنى وضّحت له مهمتى فى جلاء ، وتعمدت أن أشير له من طرف خفى أن فى الامر مصلحة له ، وأن الناس سيقرأون اسم مقهاه فى المجلة ، وان ... وان .. و ... وبالرغم من كل هذا ، فقد كان واضحا على وجهه أنه لم يفهم الموضوع فهما كاملا ... فقد امتدت يده أخيرا لتسحب الصينية من

أمامنا بما عليها من أكواب فارغة ، ونهض قائلا :

« والحكاية دى يعنى لزومها ايه ؟! »

اندفع سمير على الفور — وفى حماس شديد — يشرح له الأمر من جديد ، ويؤنبه على تردده ، ويمنيه بالخير الذى سيعم عليه .. وبالـ ... ...

وكأنما ضاق بنا الرجل ، فقد قال فجأة ودون مقدمات ، وفى صوت باتر وكأنه ينهى كل شىء :

« بس أنا مش صاحب القهوة لوحدى ، فيه أخويا ممدوح ... ... »

« سلام عليكم ! »

وكأنه كان مع شقيقه على موعد ... كان صاحب السلام فى ذلك الوقت هو المعلم ممدوح ، الشقيق الأصغر للمعلم محمد ، لكنه كان واضحا على ممدوح منذ أن وقف بباب المقهى ، يحملق فينا ، وينظر فى ساعته بدهشة ، أنه صاحب المكان الحقيقى ، وأنه الآمر الناهى ... لم يكن ناعس العينين كالمعلم محمد ، بل كانت عيناه واسعتين صاحيتين ، وشعره الكثيف مصفف بعناية ، وذقنه حليق ناعمة ، ليست كذقن المعلم محمد النصف نابتة ، وكان يرتدى جلبابا نظيفا مخططا لا زالت آثار المكواة واضحة عليه ... وفى اللحظات التالية ، كان ممدوح قد ابتلع دهشته لوجودنا وخبأها فى أعماقه بحنكة الخبير وهو يكسو وجهه بتعبير جاد وكأن وجودنا لا يستحق الدهشة أو التساؤل ، خطا الرجل نحو الداخل وتخطانا الى ما خلف البنك الكبير وهو يقول :

« ايه يا محمد ... لسه ما شطبتش ؟! »

صاح المعلم محمد وكأنه يستنجد بشقيقه الأصغر :

«كنت مستنيك يا ممدوح ... انت مش قلت انك راجع تانى ؟! »

ثم أردف وهو يومىء نحونا وكأنه يلقى بالأمر كله من فوق كاهله :

« أخويا ممدوح ... آهوده اللى تتفقوا معاه ... هو صاحب المطرح ! »

ثم غادر المقهى الى الرصيف مسرعا ، وراح يجمع المقاعد ، ويُدخل صندوق المثلجات كتصرف يؤكد عدم علاقته بالموضوع .

غير أن المعلم ممدوح ـــ أيها السادة ـــ كان أكثر مرونة من شقيقة الأكبر ... ممدوح موظف فى الحكومة ، يعمل فى الصباح فى الديوان ، ويدير المقهى بعد الظهر ... المال كما يبدو ماله ، والكلمة كلمته ، ولا مانع عنده بالمرة ... ومن غير مؤاخذه ، لا بدوأن يتأكد من شخصيتى ، ويستحسن أن أصحبه معى الى المجلة ... والحكاية فى واقع الأمر مثيرة رغم أنه لا يقرأ المجلات أو الصحف فليس فى الوقت متسع ولقمة العيش تشغل يومه كله من الصباح الى منتصف الليل ... ممدوح متزوج وعنده ثلاثة أولاد ، أما محمد فلا زال ـــ رغم انه الأكبر ـــ خاطبا ... الكلمة تجر الكلمة والحديث يحلو ويطلب لنا ممدوح كوبين آخرين من الشاى ، ثم يبتسم ويجامل ... أهلا وسهلا على العين والرأس : « بس يا ترى حاتكتب اسم القهوة فى المجلة والخلق يقراها ؟! » ... المقهى بلا اسم مكتوب على واجهته ، غير ان له اسما فى السجل التجارى هو « قهوة

السعادة » ... العطفة الوحيدة فى هذه المنطقة من الدرب أسمها « عطفة النيدى » ... على ناصيتها يقع بيت يملكه مهندس فى الحكومة اسمه عبد السلام أفندى ... العقبى لأولادك يا محترم فعبد السلام أفندى صاحب هذا البيت الذى تقوم فيه المقهى له أولاد كثيرون ، بنات وأولاد فى الطب والتجارة والقانون وأطفال لا يعرف عددهم أحد ويقولون ان زوجته حامل ... المسألة تُحل ، والضحكات تتتالى والمعلم محمد يصحو من غفوته تماما وترتسم على شفتيه ابتسامة واسعة وهو يجر كرسيا ليجلس معنا معلنا موافقته الفجائية على الأمر قائلا فى تبسط :

« اسم الكريم ايه ؟! »

ويصيح المعلم ممدوح وكأنه تذكر شيئا :

« ما هو لازم تغير من غير مؤاخذه الهيئة ! »

وكلمة وراء كلمة ، والاطمئنان يحل محل الشك ، والسلام يصبح حارا ، واللقاء عند الفجر أى بعد ساعات ، وليس فى الأمر ما يستحق أن يخاف منه الانسان فالدار أمان ... ويصيح المعلم محمد فى مرح :

« شوف بقى ياسى براهيم ـــ اسمى الجديد الذى اختاره سمير ـــ من النجمة ، يعنى خمسه ونص تكون هنا ، الشغل شغل ... آه ... »

غادرنا الدرب بعد ذلك وبقايا الضحكات عالقة بشفاهنا ، أصر سمير أن نغادره من الطرف الآخر حتى نعرف معالم المنطقة كلها ، غصنا فى ظلام الدرب المختنق ما بين جدار الجامع والبيت المقابل له ، انثنينا الى اليمن لنجد نفسينا فى خرابة تنفتح على شارع الخليج المصرى ، عند ناصية

الخرابة شادر للاخشاب ...

هكذا علمت الطريق بالأمس ...

وهكذا وجدت نفسى أستيقظ قبل أن يبزغ فجر اليوم على جرس التليفون وهو يدق بجوار فراشى بالحاح ، وصوت سمير يصيح فى أذنى بانفعال شديد ، ومرح أشد ، وكأنه فى صبيحة يوم عيد :

« انت لسه نايم يا اسطى براهيم ... قوم يا أستاذ معاد الشغل جه !! »

٣ ــ اجتاحت الدهشة درب الجماميز من اقصاه الى اقصاه ... تهامس الناس وتناقلوا الخبر المثير : « أبو النجا جاب صنايعى ! » ... تحولت كل العيون لتحاصر المقهى حصارا محكما ، وراح الجميع يتبادلون النظرات ، وراحوا أيضا يتبادلون التكهنات .

عند أول الدرب ــ من ناحية شارع الخليج ــ حتى نهايته المختنقه عند الجامع ، كان الجميع يعلقون بالهمس حينا وبالجهر حينا آخر ، فلا بد أن فى الأمر شيئا ، ومن غير المعقول أن يصل الأمر بولدىّ أبو النجا ــ محمد وممدوح ــ فيستأجرا جرسونا .

قال البعض عنى انى ضابط للمباحث جاء ليضبط جماعة تبيع الحشيش فى المنطقة ، ونفى الذين يحبون الاثارة أكثر وقالوا : « أبدا ، ولاد أبو النجا بنفسهم حايبيعوا الصنف !! »

ركيزة الدهشة وأمها أن ولدىّ أبو النجا لم يستعينا فى حياتهما بأجير غريب ، حتى والدهما ــ قالت بعض النسوة فى الدرب : « الهى يبشبش

التراب اللى تحت راسه كان راجل طيب » ــ حتى أبو النجا الكبير كان يعمل فى المقهى بيديه ، ولم يدخلها غريب فى حياته ، أو حتى بعد مماته ... فلا بد أن فى الأمر سرا !

لم يكن قد مضى على وصولى الى الدرب سوى دقائق ، كنت قد تركت ميدان السيدة زينب خلف ظهرى ودلفت الى الخرابة المجاورة لشادر الأخشاب ورحت أعاين هيئتى ... قميصى قديم مزقته عند الكتف ، والبنطلون وضعته تحتى طوال الليل ورحت اتقلب عليه ، والحذاء دسسته فى طين الطريق ودست عليه عشرات المرات حتى ضاعت لمعته واتسخ . و ...

كيف كنت أفكر فى السادسة صباحا وأنا أسير فى المسافة ما بين الميدان والخرابة ؟!

لا أدرى ...

ما الذى كنت أحس به فى ذلك الصباح الغريب ؟

لا أدرى أيضا وصدقونى ... هو شىء كالحلم ، كنت فى أحيان كثيرة أتخيل أن الناس جميعا ينظرون الى ، كل الناس يحملقون فى هيئتى الجديدة ، ويشيرون الى قميصى الممزق وبنطلونى وحذائى غير مصدقين ، كاشفين حقيقتى وشخصيتى ... لكن أحدا فى الحقيقة لم يكن ينظر الىّ ، ولم ينتبه لوجودى مخلوق ... وعندما تمهلت فى الخرابة ، راودتنى رغبة فى العودة ... وكدت أعود بالفعل من حيث أتيت لولا نظرات عامل دلف الى الخرابة من بعدى ، وانتحى جانبا ، وراح يقضى حاجته وهو

يتفحصنى ... لابد أن وقفتى طالت ، وان ترددى كان ظاهرا يعلن عن نفسه ، أو أن وجهى كان غريبا عن الناحية ... كانت نظرات العامل نفاذة متسائلة ، حتى انتابنى الارتباك ولم أستطع مواجهة تلك النظرات وكأنى مذنب يرتكب جرما . فتحركت على الفور فى اتجاهين متضادين وفى وقت واحد ... تحركت عائدا نحو شارع الخليج المصرى ، وفى نفس الوقت دفعت ساقى دفعا نحو الدرب ، ورحت أسير بسرعة وكأن أحدا يطاردنى ... لم أستطع الالتفات الى اليمين أو اليسار خوفا من شىء لا أدريه ، وجدت نفسى فى الدرب فأسرعت نحو المقهى ودلفت اليها دون أن أرفع وجهى عن الأرض ... وقبل أن أنطق حرفا ، وقبل أن أسترد أنفاسى ، وحتى قبل أن أفكر ، كان المعلم محمد يصيح فى وجهى بكل صوته وهو واقف خلف النصبة ، وكأنه نام فى مكانه منذ تركته بالأمس :

« كنت فين يا أسطى لحد دلوقت ... اتأخرت ليه ؟! »

لحظتها انتبهت حواسى جميعا ، وهبطت فوق رأسى كل ما حولى من مرئيات فى دوى اهتزت له نفسى ، فكأنى كنت نائما واستيقظت فجأة وبلا مقدمات من حلم طويل . تبعثرت أفكارى وخواطرى وتاهت وأنا أحملق فى عينى الرجل المنتفختين ، ولدت على شفتى ابتسامة لكنها ماتت بالرغم منى فقد عاد الرجل الى الصياح :

« وايه اللى انت لابسه ده ؟ ... حاتعمل لى أفندى فى الحته وتضحك علينا الناس ؟ ... اقلع هدومك وخذ البس دى .. يا الله قوام !! »

قذفنى بجلباب قديم وطاقية صوفية ، واندفعت خلف النصبة أنفذ أوامره ، خلعت قميصى وارتديت الجلباب بعد أن شمرت ساقى البنطلون ثم دسست رأسى فى الطاقية .. وجدتنى أتحرك بلا ارادة ... بلا وعى ... ..

« نضف الترابيزه واغسلها بالميه ! »

اختطفت قطعة قماش واندفعت أنظف بها رخام المائدة الوحيدة ، وأطلق المعلم محمد سحابات البخور ، ودفع الى بالمبخرة قبل أن أنتهى من تنظيف المائدة :

« صباح الخير يا اسطى ابراهيم ... نهارك فل إن اذن الله »

« نهارك قشطه يا معلم محمد ! »

كأنه يرفض أن يمهلنى حتى أسترد وعيي وأحس بما حولى وأميز بين لهجة الغضب عنده ولهجة التحية ... تناولت المبخرة من يده وأخذت أطوف بها فى المكان ... وكان لابد أن أنادى ، أن أصلى على النبى وأوحد الله بصوت عال منغم يسمعه الغادى والرائح والقابع فى دكانه ، حاولت النداء فاحتبس صوتى ، وطاردنى المعلم محمد :

« ما تنادى يااسطى ، ما تصلى على سيدك أمال ! »

نظرت اليه بتوسل ، واحتبس صوتى تماما وبردت أنفاسى وترددت بسرعة وقلبى يدق ... ففى الخارج ، وعلى الضفة المقابلة من الدرب ، رأيت وجها تطل علىّ عيناه من خلف زجاج دكان كان واضحا أنه دكان مكوجى ، فقد بدت الملابس المعلقة والمكومة فى صرر فوق المائدة والأرفف وعلى الشماعات ... كان الوجه لفتاة بيضاء البشرة واسعة العينين حادة النظرات مستقيمة الجسد ، ترتدى فستانا رغم أن قماشه بدا رخيصا الا انه

كان أنيقا فوق الجسد المستقيم السرح ... شعرها معقوص الى الخلف ، يشده فى قوة شريط أحمر اللون ، فى قدميها شبشب رغم قدمه كان يحتفظ برونقه ولمعته ، وكانت تحمل بين يديها أحدى ضلفتى باب الدكان بسهولة لتنقلها الى الرصيف عندما وقع بصرها علىّ ... ولا بد أن وجودى فاجأها ، فقد ابتسمت ... فى إبتسامتها سخرية ، وفيها أيضا دهشة وجسارة جعلتنى أستدير هربا من نظراتها الفاحصة ... غير أنى ما كدت أفعل ذلك حتى واجهتنى على الفور نظرات المعلم محمد الذى اختطف منى المبخرة وراح يطوف بها فى المقهى صائحا منغما :

« صلى على النبى ... ترضى النبى ... تكسب ! »

رغم أن وجهى كان للداخل ، الا انى أحسست بوقع نظراتها فوق ظهرى وكأنها سياط ، هرولت نحو الحوض وفتحت صنبور المياه ورحت أغسل الاكواب والملاعق وعيناى مسمرتان فى الحائط أمامى ، خلفى كان المعلم محمد يبخر كل مقعد فى المقهى ، ويصيح صيحاته المنغمة بصوت — رغم قبحه — بدا لى جميلًا طازجا ... أحسست بوقع قدميه خلفى وهو يقترب منى ليدور حول البنك ويدلف خلف النصبة ، وما أن اقترب منى حتى همس فى صوت ثابت :

« دى سعدية بنت المكوجى ... بت كويسة وعفيفة ولسانها حلو وفى حالها هى وأبوها ، بس عيبهم أنهم بيبيعوا كازوزه ! »

وقبل أن أستدير اليه ، وقبل أن أتفوه بكلمة واحدة ، جاء من الخارج نداء عال :

« يا محمد !! »

ولم يرد المعلم محمد على صاحب النداء ، وسرعان ما زحفت يده لتسحب الصينية وتضع فوقها كوبا فارغا أخذ يصب فيه الشاى قائلا :

« الشاى ده للمعسلة ! »

حاولت ملاحقة حركاته السريعة ، فملأت كوبا بالماء ، وقبل أن أعود به ، كان هو قد وضع كوب الشاى على الصينية وهو يصيح :

« وبعدها معاك يا براهيم ، اتحرك وخلى عندك همه ، الزبون واقف مستنى الاصطباحه ! »

الغريب فى الموضوع ــ أيها السادة ــ ان كلمات المعلم محمد كانت تؤثر فى ــ منذ اللحظة الأولى ، ولا أدرى كيف ــ تأثيراً مباشرا ، كنت أطيع أوامره دون كلمة وكأن مصير حياتى معلق برضاه ، كنت أتحرك بلا ارادة كاملة ، جزء كبير من ارادتى توقف تماما عن الاستقلال وأصبح تابعا لكلماته . كنت أندفع مع تيار الاحداث التى كانت تتتالى فلا تدع لى فرصة للتفكير .

وعندما سحبت الصينية وحملتها الى الخارج ، شعرت وكأنى وقعت فى مصيدة ... ذلك انى لم أجرؤ على سؤاله عمن يكون هذا الزبون ... وأين ... و ... وأوقعنى اندفاعى المرتبك الى الخارج فى حيرة شديدة ، كان الدرب ــ فى الدقائق التى بقيتها فى الداخل ــ قد امتلأ فجأة بالناس ... فعند ناصية الجامع وجدت بائع الفول وقد تجمع حوله الأطفال وراحوا يصوصوون كالكتاكيت عندما تتجمع حول وعاء الحب ... بجواره وقف بائع بطاطا وقد شمر جلبابه عن ساقية السوداوين القذرتين ، ووضع

قدما فوق احدى يدى عربته ، فتعرت ساقه الاخرى حتى نهايتها ، بينما الدخان يتصاعد من الفرن الملىء بالبطاطا الساخنة .

وأغلب الدكاكين فتحت أبوابها ، فتاة فى الدرب تهرول بمريلة المدرسة ــ رغم اننا كنا فى الاجازة السنوية !! ــ لكنها تحمل فى يدها بدل الكتب عدة أرغفة وطبقا مليئا بالفول ... الصينية فى يدى ترتجف ، وسطح الشاى يتمايل ويندلق ليصنع حول قاعدة الكوب بركة حمراء اللون... بائع الفول ينادى بصوت أجش: « اللوز... المدمس... » ، وبائع البطاطا يصيح : « المعسلة ! » ... وأنا وسط الدرب بجلبابى وطاقيتى ويدى المرتجفة لا أدرى الى أين أذهب ... عينا سعدية ترقبانى من بعيد ولا زالت على شفتيها تلك الابتسامة الساخرة الغامضة ... وكان لابد أن تحدث معجزة ــ أيها السادة ــ لكى أخرج من هذا المأزق الذى وقعت فيه ... فلمن أقدم الشاى ؟!

وعلى كل فلم يطل الأمر ... فقد حدثت المعجزة بالفعل عندما نادى نفس الصوت بنفس النبرات : « يا محمد ! »

وكان المنادى هو بائع البطاطا ، فاندفعت نحوه اندفاعا وأنا أقول فى صوت حاولت أن أجعله ثابتا :

« صباح الخير يا معلم ! »

كان قلبى يخفق خفقاناً شديدا ، لم أستطع النظر فى وجهه ، وكانت يدى ترتجف وأنا أذيب السكر بالملعقة فى حركات سريعه ومضطربة ، ويد الرجل تدخل فى نطاق بصرى هائلة سوداء قذرة الأظافر ضخمة الاصابع لتقبض على الكوب دون أن ترفعه من فوق الصينية :

« صباح القشطة ... يا مرحب ! »

كالمنوم رفعت رأسى اليه لتلتقى عيناى بنظرات سددها الرجل من عينين ضيقتين وكأنهما ثقبان فى مساحة من الارض البور ، كان وجهه الأسمر مليئا بالأخاديد ، له شارب هائش وذقن نابته ، مضت ثوان افتر فيها فمه عن ابتسامة أظهرت صفين من الأسنان الصفراء ، وقال الرجل بصوت مرحب :

« اسم الكريم ايه ؟ ... »

« محسوبك صا ... ... ابراهيم »

« عاشت الاسامى يابو خليل ... أهلا وسهلا ! »

والتصق لسانى بسقف حلقى فلم أستطيع الرد ، تداخلت المرئيات أمام عينى والأصوات فى أذنى وأنا أستدير عائدا الى المقهى لتلطشنى عينا سعدية بنظرة ساخرة مشفوعة بابتسامة أشد منها سخرية ، ويزداد ارتباكى ... وقبل أن أضع الصينية فوق رخامة البنك ، وقبل أن أتنفس الصعداء ، عاجلنى المعلم محمد صائحا وهو ينفخ فى الفحم المتوهج أمامه :

« الجوزه !! »

نظرت اليه غير فاهم وقد أمسكت الحيرة بتلابيبى ، لكنه عاجلنى قائلا :

« شغلتنا يا اسطى مش عايزه لكاعه ... الجوزه للمعسلة برضة ، خليك فاكر ، ده مزاجه على الصبح كرسى الدخان والشاى ... والفلوس بيدفعها على ودنه ، تأخد وتدينى على طول ... قرش للشاى ، وقرش

للجوزة ... يالله ، اتلحلح !! »

* * *

اجتاحت الدهشة درب الجماميز من اقصاه الى أقصاه . .. تهامس الناس فيما بينهم وتناقلوا الخبر المثير : « أبو النجا جاب صنايعى ! » ... تحولت كل العيون لتحاصر المقهى وتحاصرنى حصارا محكما ، وراح الجميع يتبادلون النظرات ، وراحو أيضا يتبادلون التكهنات ... وكلما مضت دقيقة ، كلما فتح دكان فى الدرب وانتشر الخبر ، وكلما مضت لحظة ، ارتفع النداء من مكان فى الدرب طالبا الشاى أو القرفة ، والمعلم محمد يصيح فى حماس يزداد لحظة بعد لحظة :

« شاى على اتنين لبتاعة العيش ! »

« العجلاتى ... خد ... آدى الشاى بتاعه ! »

« المكوجى اللى جنب الجامع ، خد له قرفه على تلاته ! » .

« الحلوانيه عاوزه شاى كشرى ... احفظ مزاج الزباين كويس وفتح عينك يا اسطى ! »

كان المعلم محمد يمارس سلطانا يتلذذ له أيما لذة ، وكنت انا أعمل قبل ان افكر ، لامجال للتأمل أو النظر ، الحياة تلتهم الدقائق والوقت يندفع عدوا ، الاشياء تتقابل فى صلابة ووضوح ، والرؤية تتضح وسط المعركة التى كنت اخوضها تدريجيا ... صف الكاكين المواجه للمقهى أغلبه مكتبات قديمة تبيع الكتب القديمة والنادرة والتى لا يحصل عليها المرء الا بشق النفس .. أمام المقهى مباشرة فتح المعلم فتح الله مكتبته وأخرج

مقعدا أمام بابها وجلس عليها ...

« ده تستنى عليه لما يطلب منك ، هو بيدفع الحساب آخر النهار . انما مراته تفطر وتشربْ الشاى وتحط لك القرش فى الصينية ، تتغدى وتشربْ الشاى وتحط لك القرش فى الصينية ... و ... »

لكن نظرات المعلم فتح الله قاصرة عن الوصول الينا الا بعد جهد ، يصيح من مكانه على المعلم محمد ، ويصله الخبر همسا فى اذنه فيضيق عينيه ليصل ببصره الىّ ثم يبتسم ، زوجته تصل بعد قليل ومعها ابنته ، وجه آخر كأنه سقط لتوه من فرع أخضر ، فى الوجه شحوب يضفى عليه جلالا أخاذا ، وفى العينين نظرات مرحة ، لكن مرحها مقيد بألف قيد وقيد ... وتبتسم الفتاة أول ما تبتسم لسعدية ، ثم تصبح عليها وتتهامس معها ثم تنظران نحوى وتغرقان فى ضحك مكتوم ... ويهمس من خلفى المعلم محمد بصوت كالفحيح :

« دى هنيه بنت المعلم فتح الله ، مش بتيجى كتير ، أصلها على وش جواز ! »

بجوار مكتبة المعلم فتح الله دكان لم يفتح ابوابه بعد ...

« صاحبه راجل عجوز بيبيع حديد خردة ... يوم يفتح وعشره لأ ... وده وده محصل بعضه ... عمره ما طلب كباية شاى ! »

بجوار الدكان المغلق مكتبة أخرى ، فوق بابها شعار :

« الثقافة للجميع ! » ... أمامها شاب طويل أسمر ، نحيل حتى لكأن جسده صنع من ورق الكتب المعروضة على أرفف مكتبته .

« تخلى بالك من عمران ، هو بيطلب مشاريب وبيدفع قبل ما يمشى ، انما التلامذه اللى بيقعدوا عنده ، شاطرين فى القراية والرغى بس ... آل يعنى فالحين قوى ! »

وابتسمت ...

هنا — أيها السادة — لم استطيع سوى الابتسام ، هنا توقفت الحركة اللاهبة من حولى لتتحرك الذكريات من مكامنها فتفرز للحاضر رحيقا يستحلبه المرء بلذة تفوقها كل لذة ... بدت لى تلك المكتبة وكأنها قطعة من حياتى ، كأنى أعرف تماما ما بداخلها وما تحويه ... نظرة واحدة الى صفوف الكتب المتربة المكدسة فى غير نظام ، تنقلكم فورا من أعلى قمم الثقافة الى اوطاها قدرا ... من ارسطو وافلاطون الى روايات الجيب وقصص الحب المثيرة !! ... ابتسمت — أيها السادة — لأن افكارى ولدت على باب مكتبة كهذه ، فى شهور حارّة قائظة كهذا الشهر ، بدأت من أول السلم يوم كنت اتخيل للسلم نهاية ، لمحات من الماضى مرت سريعة أمام عينى وأنا أرقب صبيا يتجه نحو المكتبة ليسلم كتابا ويدفع قرشا ويحمل فى يده كتابا آخر يختفى به وسط ركام البيوت المكدسة فى هذه المنطقة ... غير أن الوقت — واعذرونى — لم يكن مناسبا بطبيعة الحال للتذكر أو التخيل واستجلاب صور من الماضى ، كانت الحياة تشدنى بعيدا عن نفسى شدا لم استطع مقاومته ... الزبائن فى ذلك الوقت من اليوم يدلفون الى المقهى فى مواعيد محدودة وكأنهم قسموا المقاعد والدقائق فيما بينهم ، وكأن كلا منهم يخلى مقعده للآخر ... وأشياء جديدة فى المهنة أعرفها ... ووسط الصيحات والنداءات وشقشقة البنات والهمسات ،

كنت أقطع الدرب فى سرعة وعصبية ، وعصبتى تزداد كلما أحاطتنى العيون ، والمعلم محمد يقول : « ولا يهمك ... ما هو لازمن كده ! » ... غير أن شيئا حدث فى تلك اللحظات ، شىء هبط على كصفعة مفاجئة فشد كل انتباهى وتركزت حوله كل احاسيسى وافكارى .

كنت أحمل صينية عليها ابريق من القرفة وثلاثة اكواب صغيرة وأنا اندفع الى الخارج ، عندما ارتطم جسدى بشىء صغير انقذف من الخارج بسرعة ... ارتجت الصينية فى يدى وتمايلت وكادت تسقط لولا يداه ... وقعت عيناى عليه ، والتقتا بعينيه الدهشتين ، فغاص قلبى على الفور بين ضلوعى .

٤ ــ « كنت فين لحد دلوقت يابن ال ... »

وامتدت ذراع المعلم محمد من خلف ظهرى لتهوى كفه فى صفعة هائلة فوق الخد الصغير ، وتناثرت خصلة شعر فوق الجبهة العريضة ، لكن العينان الواسعتان الدهشتان لم تفارقا وجهى ... لا الوجه تألم ، ولا الفم تأوه ، ولا الجسد تقلص ... ارتطم من أثر الصفعة بالحائط القريب ، ثم ارتد مرة أخرى كأنه كرة من المطاط لاعظام فيها .

عندما يمتزج الذعر بالغضب بالدهشة فى مزيج واحد ، يصبح المركب الجديد حاد التأثير على الغير بلا شك ، ولقد رأيت كل هذا فى عينى حسن الواسعتين وهما تسددان الىّ نظراتها النافرة ... كان يندفع نحو باب المقهى بسرعة ، ذهنه الخالى لم يهيىء له من المفاجئات شيئا ، تأخر عن موعده وسيمر الأمر بصفعة من المعلم محمد وسبة لأمه أو لأبيه وينتهى كل شىء ويستقر الحال ... لكنه فجأة رآنى ، وكأن شيطانا هبط عليه من الجحيم فى حلم مزعج .

« يالله يا د انجر ، خد الاسطى ابراهيم معاك ولف بيه على الزباين ، تقول لهم ده الصنايعى الجديد بتاعنا ! »

انتشر الذعر فاجتاح تقاطيع الوجه الصغير وتغلب على كل ماعداه فى عينى حسن .

اكتملت تفاصيل المصيبة وهبطت برمتها على رأسه الصغير ، رأيت جلبابه يهتز مع ارتعاشة جسده السريعة الخاطفة ، فلا بد أنه كان يرتديه على اللحم ، جفونه ذات الرموش الطويلة تختلج ، وانفه يرتجف ، وشفتاه غاضت منهما بقايا الدماء الباهتة ، فاصفرت ... لكنه بلا حول ولا طول ، يستدير نحو الخارج مطيعا أوامر المعلم محمد ، وكان علىّ أن اتبعه ... مضى فى الزقاق خطوات فمضيت خلفه ، ثم رفع رأسه فجأة مستديرا نحوى بكل ما فى رقبته من ليونة ، وقال :

« انت حاتشتغل عندنا فى القهوة صحيح ؟ »

الكلمات عادية ، لكن النبرة معذبة ، والخوف يتراقص بجنون فوق الحروف ، وحسن يقفز خطوتين الى الامام ، يسبقنى بهما ثم يستدير نحوى ويسير بظهره ليرانى ويتفحصنى وكأنه لا زال غير مصدق ... ووقعت فى الحيرة ، وارتعت امام نظراته ، وارتجفت يدى وانا أصب القرفة للمكوجى ، واشتد ارتياعى عندما استدار وهو يقول دون أن ينتظر منى جوابا على السؤال :

« نروح للتماثيلجيه الاول !»

لم أفهم ما يعنية ، غير انى سرت وراءه وكأنى أسير فوق سحابة باردة ، فلا شعور ولا احساس معين ، بل خليط من المشاعر والاحاسيس كانت

تتلاطم فى صدرى وكأنها بحر هائج ... بلا كلام ولا نقاش فهمت كل ما يفكر فيه حسن ، تذكرت فى تلك اللحظات ما قاله لى المعلم ممدوح بالامس :

« عمرنا ما شغلنا غريب أبدا ولا حد عتبها برجله ، مفيش غير واد صغير اسمه حسن . وده برضه قريبنا ، نسيبنا يعنى ! »

كان حسن يسير خطوة ثم يلتفت نحوى ليتفحصنى بعينين شديدتى اللمعان والعداء معا ، وفى لحظة ، كدت أقرر مقابلة العداء بالعداء ، قررت — أيها السادة — أن اقوم بدورى كما يجب أن اقوم به ... فرحت اقابل نظراته بمثلها ، ولا أرد على أسئلته العديدة الا فى اقتضاب شديد ... وكنا قد وصلنا الى ناصية الجامع وانثنينا الى اليسار ودلفنا الى حارة السادات فيما بين الجامع ومئذنته ، وسرنا فى طريق ضيق عند نهايته عدة أبواب تصدر من خلفها أصوات لآلات كثيرة ... ما أن وصلنا الى أول باب حتى قفز اليه حسن ونفذ منه الى الداخل وأنا اتبعه ، وقفت وراءه عند مدخل الباب لتطالعنى ثمان عيون التفتت كلها نحوى ، وتوقف كل شىء فى الورشة الصغيرة ، وصاح حسن فى الجميع وكأنه يشهدهم على جريمة ترتكب :

« ده الاسطى براهيم ، الصنايعى الجديد بتاعنا ! »

قال أحدهم موجها حديثه الى حسن :

« الله ... أمال انت رايح فين ياد ... حاتسيب المطرح ؟! »

ارتجف صوت حسن وعلت طبقته واحتدت وهو يقول :

« لأ ... ده حايشتغل معانا بس ... حايساعدنا يعنى ! »

كان واضحا انه حائر ، وان جملته التى قالها لم يكن متأكدا منها ، تلعثم فى البداية ، ثم اطلق الكلمات سريعة كالطلقات وكأنه يحمى بها نفسه من مصيبة ستحل عليه .. كنت أقف عند الباب يكاد رأسى أن يصل الى نهايته ، ووجدت نفسى أتمتم بارتباك واضح :

« صباح الخير يا اسطوات ! »

« صباح الفل .. اسم الكريم ايه ؟! »

قالها أحدهم وهو يبتسم مرحبا ، وصاح حسن ملاحقا كلمات الرجل :

« ما قلت لك الاسطى براهيم ... يالله يا براهيم شوف الاسطوات يشربوا ايه ؟ ... ده الاسطى رمضان ، وده الاسطى فاروق ، وده الاسطى عبد السلام ، وده الاسطى محمد الصغير ... خلى بالك كويس ، فى الدكانة التانية الاسطى زكى ... تعالى ورايا » واندفع حسن الى الخارج ، لكنى تسمرت فى مكانى ، كنت أتصبب عرقا وأنا أستمع الى صوته ... كان صوتا غريبا ، كان رفيعا ، لكن فيه نغمة خشنة لا تخطئها الأذن ... توقف حسن عند الباب عندما رآنى متسمرا فى مكانى وراح ينظر الى بعينين يطق منها الشرار ، ارتبك ولم يدر ماذا يقول أو يفعل ، لكنه أبى فى الوقت نفسه أن ينهزم أمام هذا الجمع ، فعاد الى الصياح بصوت أكثر خشونة وحدة :

« ما تشوف الاسطوات يشربوا ايه يابنى آدم ! ... مالك لخمه

كده ؟ ... اتلحلح شويه وخلى عندك همه ! »

وكأنما انفتحت له طاقة فى السماء، أو كأنه ولد فى ليلة قدر ... أوحت اليه لهجته الآمرة الغاضبة بشىء آخر غير التحدى ... وبدا فى تلك اللحظات وهو يعاود الصياح واصدار الأوامر كأنه ظل مسخوط للمعلم محمد أبو النجا :

« جرى ايه يا اسطى ، ما تتلحلح امال ! »

ولم أتمالك نفسى من الضحك أيها السادة ، لم أتمالك نفسى ، ضحكت وضحك معى كل الرجال ، لكن حسن لم يضحك ، بدا له الامر جدا لا هزل فيه ، قطب ما بين حاجبيه فبدا قريب الشبه من المعلم محمد الى حد كبير ، شد قامته القصيرة وفز بكل جسده نحوى وهو يشوح بيده كمن يهم بصفعى ، لكنه عاد فارتد الى الخلف عندما أيقن أن قامتى أطوال منه بكثير وأن يده مهما قفز لن تطولنى بحال ... أحس لحظتها ولا شك أنى حائط عال يقف أمام أحلامه التى برقت فجأة وسط ظلام دهشته وحيرته ، فاكتفى بالصياح ، وعاد يردد بنفس الصوت الغاضب الغريب :

« الأسطى فاروق مزاجه شاى بالحليب ، والاسطى عبد السلام يشرب قهوة مظبوط فى كباية ، مرة الصبح ومرة بعد الظهر .. والاسطى رمضان .. .. » .

وصدقونى ــ أيها السادة ــ كان كل شىء يجذبنى اليه جذبا شديدا ، كنت أمامه أشعر وكأن شيئا مجهولا يسلبنى ارادتى ويسيطر على ويحتوينى فى اعماقه احتواء لامفر منه ، رغبة عارمة أكيدة تنتابنى لأنحنى على

حسن وأطيب خاطره وأربت على كتفه وأبوح له بالسر ثم أضمه الى صدرى وأطمئنه على عمله ورزقه .. شيء كالبكاء يفور فى صدرى ليرتطم كالموج الهادر باحساس غريب ، انبثق هو الآخر مرة واحدة وفى نفس الوقت ليدهمنى ويحتوينى ، وجدت حياتى وماضى بل مستقبلى أيضا مجرد ذكريات وأحلام لاظل لها الا فى خيالى .. بدا لى الأصدقاء وكأنهم اصدقاء زمان مضى ، وبدا لى عملى وكأنه شيء تحقق فى حلم طويل ... أحدد لكم أكثر وأقول انه شيء كالعشق كان يجذبنى نحو هؤلاء الناس ، دقات قلبى تنتظم لأول مرة منذ زمان بعيد ، تهدأ وتستريح من عناء اللهث وراء الحياة ... الوجوه تبدو لى أليفة قريبة تحيا على راحتها وبلا تصنع ، ملامحها غير مشدودة ، نظراتها لا انفعال فيها ولا مواراة ... و ... ولن أطيل عليكم فلعلكم تدركون جيدا كل ما أريد قوله ، ولعلى نسيت فى غمار حماسى هذا وانفعالى الشديد بعض التفاصيل الصغيرة ، غير أن الذى أتذكره عن يقين هو انى قررت فى تلك اللحظة الغريبة ، وأنا أعيش وسط تلك الاحاسيس المتناقضة ، قررت للمرة الثانية ، وفى اصرار وعناد ، أن أخوض المعركة وأن أحياها .

* * *

ولم يكن أمامى سوى هذا الطريق ، كان حسن قد أعلن علىّ حربا لاهوادة فيها منذ اللحظة الاولى ، وكان من السهل الانتصار عليه بأن أطلب من المعلم محمد أن يأمره بالكف ، أو بالعودة الى البيت أو ... أو أى شيء ، غير أن هذا الطريق لم يخطر ببالى قط — أليس هذا غريبا ؟! — ولم يكن قرارى هذه المرة من أجل اتقانى لدروى أو تفرغى للتجربة التى

بدأت أعيشها حقا ، أبدا ... بل كان القرار ملتصقاً أشد الالتصاق بحياتى ... كانت المسألة تبدو لى مسألة مصير يجب أن أواجه فيه كل العقبات ، وأن أنتصر فيها على كل السدود ...

وكان علىّ أيضا أن أدخل المعركة أمام نفسى ...

كان الخوف يتسلل الى قلبى فى أحيان كثيرة ويسيطر على سيطرة كادت تدفعنى لخلع الجلباب والطاقية والفرار من درب الجماميز كله ... وكان على أيضا أن أدخل المعركة أمام عشرات العيون التى راحت تتفحص ذلك الغريب الذى اقتحم عليهم دربهم وحياتهم دون انذار سابق .

هو شيء كالعداء لكنه ليس عداء بحال من الاحوال ، هو شيء قريب من الحذر والترقب ... كان الجميع بلا استثناء يدهشون فيما بينهم وبين أنفسهم لكنهم كانوا يحاولون كتمان هذه الدهشة ، كانوا يرقبوننى من بعيد لكنهم يتظاهرون أمامى باللامبالاة ، وكنت اذا ضبطت نظرات أحدهم أو احداهن يصيبنى الارتباك بقدر ما يصيبه أو يصيبها ... كنت أمتاز عليهم بالكثير ، لكنى افتقدت هذا الاحساس بالامتياز وأنا أحتك بحسن وأحبه دون أن أعى ، ثم أدخل مع هذا الصبى الأعزل فى معركة كنت أستعمل فيها كل أسلحتى بلا رحمة ... ثم أشعر بالرغم من ذلك ان لحظة فرارى آتية لاريب فيها ، وانى سأخلع الجلباب وأفر من المقهى والدرب كله وأكفى نفسى شر هذه المعركة التى كانت تصيبنى فيها سهام خفية تنبثق من أعماق أساسا وتقرب من لحظة الهزيمة !

أرجو — أيها السادة — ألا يضايقكم هذا الاستطراد فأنا فى حاجة

ملحة اليه لأوضح كل ماكان يعتمل فى نفسى ، ولا تعجبوا أن بدا لكم الامر متناقضا غير محدد الملامح ، ولا تهزوا رءوسكم فلست أخادعكم ولا أخدعكم ، أبدا ، فهذا بالضبط ما كنت أحسه فى تلك اللحظات من بداية التجربة ... كنت أشعر بالابيض والاسود معا وفى وقت واحد ، بالحار والبارد معا فى لحظة واحدة ، كنت أنا ولست أنا فى آن ... وباختصار ... كنت جرسونا وصحفيا فى قالب يتحرك جيئة وذهابا فى الدرب العريق !

* * *

كان حسن بعد أن غادرنا ورشة التماثيلجية ... والتماثيلجية ـ أيها السادة ـ كلمة مصدرها البعيد « مثل » ، ومصدرها القريب « تمثال » ، وليس فى اللغة ما يقال عنه تماثيلجية ... فهؤلاء العمال هم صناع التماثيل ، تخصصوا فى صنع التماثيل النحاسية التى تباع فى الأسواق ، تماثيل للفراعنة ، وأخرى للحيوانات و ... والمهم أننا غادرنا الورشة وحارة السادات ورأسى مزدحم بقائمة من الطلبات كان على ألا أنساها أو تفقد ذاكرتى أحدها ... غطسنا فى درب الجماميز الذى كان يشغى بكل ما فيه من نساء وعيال ورجال ... وكان حسن يدفعنى أمامه دفعا بلا رحمة وهو يقدمنى للزبائن صائحا وكأنه يشتمنى بأقذع الألفاظ :

« ده الاسطى ابراهيم الصنايعى الجديد بتاعنا ! »

فى صوته عدا الثورة والغضب والاحتجاج قرف واضح تصنّعه ليثبت به وجوده وتعاليه على الأمر كله ... عند بائعة الخبز أضيف الى قائمة

المشروبات فى ذهنى بند جديد ، وعند الحلوانية أضيف بند آخر ، ونادانى العجلاتى متفحصا هيئتى وهو جالس على مقعد بجوار باب دكانه :

« اسمك ايه يا اسطى ؟! »

« محسوبك براهيم ! »

وقطع الحديث نداء المعسله :

« ياحسن ! »

« أيوه جاااا ى ... »

صاحها حسن وهو يتدحرج مسرعا نحو بائع البطاطا ، وعاد العجلاتى يسدد الىّ نظراته ويبتسم عن صفين من الاسنان الذهبية المتآكلة ، بشفتين بدتا وكأنهما تقبلان الهواء بنهم ، ثم قال :

« صباحك فل يابو خليل ، هات لى شاى ساده ! »

وأضيف الى القائمة الطويلة بند آخر ...

وأنا ـ أيها السادة ـ مصاب بداء النسيان ، أنا لا أستطيع أن أحمل فى ذهنى تفاصيل أشياء كثيرة تحدث لى ، لا أستطيع تذكر موعد مع صديق الا بشق الأنفس ... وأصبح من المستحيل تماما فى ذلك الصباح أن أتذكر طلبا واحدا من تلك القائمة التى بدأت بأربعة طلبات عند التماثيلجية ، غير أنى اندفعت أعبر الدرب مسرعا وأنا أحاول استعادة كل ما طُلب منى ، غير انى ما كدت أخطو نحو المقهى خطوتين ، حتى سقطت على كتفى يد ثقيلة استوقفتنى ... نظرت خلفى ليصدمنى وجه رجل طويل عريض ، مجسم القسمات بارزها ، له نظرات تنبثق من عينين غريبتين

وكأنهما تعودتا طوال عمرهما على البحث فى الأماكن المظلمة ، كانت نظراته تخترق عينى وكأنها مسامير ، ارتجفت وصوت الرجل الأجش يقول لى من بين شفتين نصف مغلقتين :

« اسم الكريم ايه؟ »

« محسـ ... محسوبك براهيم ! »

« أمال لما انت اسمك براهيم صحيح مش بترد ليه ؟ ... من الصبح وأنا بأنادى عليك يا براهيم يا براهيم ولا انت هنا !! »

كنت ارتجف وأنا أواجه نظرات هذا الرجل الذى بدا لى على الفور وكأنه أحد المخبرين ... أيقنت أن مأزقا جديدا قد أقع فيه بين لحظة وأخرى قد انفتح تحت قدمى ... وكان حسن قد عاد ليقف بينى وبين الرجل وفى عينيه شماتة وسعادة ، راحت عيناه تتطلعان الينا فى شغف وهما تنزلقان فى مقلتيه يمنه ويسرة وكأنهما بليتان يعبث بهما طفل عفريت ... وابتسامة الرجل تزداد اتساعا ، ونظرات الشك فى عينيه تمزق كالسكين الحاد جلبابى لتشير الى البنطلون الذى أرتديه ... طال الصمت ويد الرجل على كتفى لاتنزاح ونظرات حسن تزداد مرحا وتشفيا و ... ثم صرخ قائلا :

« مالك اتكتمت ليه كده ... ما ترد يا أخينا ! »

وقبل أن أرد بدا أن الرجل قد نفد صبره فقال :

« قول لى ... انت اشتغلت قهوجى قبل كده ؟! »

برقت عينا حسن ، ومضت لحظات أخرى مشحونة ، فماذا اقول للرجل الذى كان ينتظر منى الجواب وهو يدق فى عينى نظراته النفاذة ... أحسست لحظتها أن كل شىء سينهار فورا ، أحسست وكأن سحابة تلفنى

وتسبح بى فى سماء الدرب ، ثم تقذفنى من حائط الى حائط ... تلاعب الغضب برأسى وكدت أتحدى الرجل وأقول : « وانت مالك ؟ ... بتسأل ليه ؟ ... » ، لكننى تراجعت ورحت أبحث فى ذهنى عن جواب مناسب لسؤاله الذى ظل معلقا دون جواب ... ثم جاءنى صوت حسن وكأنه يأتى من أغوار عميقة :

« ما ترد يا براهيم وتخلى عندك همة ، انت لسانك مقطوع والا ايه ؟! »

كان حسن يصيح ، بل يصرخ بصوت لف الدرب كله وكأنه يشهد الرجل والناس والدنيا كلها على انى لا أصلح . واستفزنى حسن ، نظرت اليه بغل شديد وأنا أقول للرجل خلال ابتسامة اغتصبتها اغتصابا :

« أبدا يا معلم ، دى أول مرة أشتغل فيها قهوجى ! »

« أمال كنت بتشتغل ايه قبل كده ؟! »

لاحقنى السؤال قبل أن أسترد أنفاسى أو أبتلع لعابى ، لكننى كنت ــ فى عناد ــ أشدد على مخارج كل حرف وأنا أقول :

« كنت باشتغل براد ! »

وما حدث بعد ذلك لايد لى فيه ...

جاء الامر كله وكأنه الهام هبط على من السماء ، نسيت كل شىء ، وغصت حتى الاعماق فى حياتى الجديدة ، تدفقت الكلمات من فمى تدفقا حارا ، وكلما ماتت فى عينى حسن نظرات الشماتة ، كلما أحسست بالزهو وطعم الانتصار الحلو :

« كنت ... كنت باشتغل براد ودراعى انخلع بعيد عنك .. الدكتور قال لى ما ترجعش للصنعة تانى ، مالقيتش قدامى الا كده ... آهو كله أكل عيش يا معلم ! »

ولفظت نظراتُ الشماتة فى عينى حسن آخر أنفاسها ، وبدا أن الرجل قد اقتنع بما قلت ، لكنه عاد ينفضنى بنظراته نفضا دون أن يرفع يده عن كتفى ، لكنى عاجلته وابتسامتى تزداد اتساعا :

« تلزم أيها خدمة يا معلم ؟! »

وانزاحت اليد عن كتفى ، وقال الرجل قبل ان يستدير عائدا الى دكان الحلوانية حيث كان يجلس بجوار الباب :

« أيوه ... تجيب لى شاى ... شاى كشرى ! »

والتقت نظراتى بنظرات حسن لبرهة ، لكنى سرعان ما استدرت هربا من عينيه ، كانتا ـــ أيها السادة ـــ تضجان بصراخ مكتوم ... هرولت مسرعا نحو المقهى وأنا أشعر بالسعادة والنشوة ، وبجانب عينى رأيت سعدية تتهامس مع هنية ابنة المعلم فتح الله ، وكانت الفتاتان ترمقانى بعيونهما وتبتسمان ، فازداد اندفاعى نحو المقهى ، فى نفس اللحظة التى أحسست فيها بشىء يندس بسرعة البرق بين ساقى ويعرقل اندفاعى ... تطوح جسدى كله الى الأمام وترنحت ، رحت أهوى نحو الأرض كقطعة حجر لولا صندوق المثلجات الذى تعلقت به فى آخر لحظة ... سقطت على ركبتى ودوت فى أرجاء الدرب ضحكات السخرية تلهب ظهرى كالسياط ، دوت فى كل مكان فيه ... غير أن أكثر الضحكات وضوحا كانت ضحكات سعدية وهنية المرحة الصاخبة ... لكنى عدت فوقفت

على قدمى من جديد ، التفت ورائى ووقع بصرى على حسن ، كان يقف بعيدا عنى ، على وجهه ابتسامة ، وفى عينيه ذعر لا يخفى على أحد ، وكان صوت المعلم محمد يجلجل فى رهبة ودهشة وغضب هائل :

« ايه اللى انت عملته ده يابن الابالسه ؟! »

٥ ــ لم تعد يدى تهتز وأنا أحمل الصينية بأكواب الشاى أو القرفة أو فناجين القهوة ... كنت كلما مرت لحظة ، ازدادت معرفتى بأسرار المهنة وطبائع الزبائن ، تردد اسم ابراهيم فى الدرب أكثر من مرة فلبيت النداء وتنبهت اليه وكأنى ولدت بهذا الاسم ، ومع مضى الدقائق والساعات وتبادل الكلمات اختفت تلك الابتسامات الساخرة ، وحلت محلها ابتسامات أخرى فيها من الدهشة قدر كبير ... راحت العيون تتقاذف النظرات عبر الدرب كلما سنحت الفرصة أو جاء الوجه فى الوجه أو طلب الأب شايا يعدل به مزاجه .

عندما فعل حسن ما فعل لم أغضب منه ولم تصبنى الثورة ... أحسست للضحكات فى نفسى بوخز أليم ، التقت عيناى بعينى سعدية فرأيت فيهما جسارة واصرارا لم تفلح بسمتى الشاحبة فى اكتساب عطفهما ... شدتنى على الفور نظرات هنية ودق قلبى دقة واحدة عنيفة ... فأنا ــ أيها السادة ــ انسان خيالى ، من عيوبى انى أحيانا

أخلط الواقع بالخيال فلا أستطيع التفرقة بينهما ... نظرات هنية تنكسر تحت رموش راحت تصفق تصفيقا مرتعشا ، لكن عيناها منذ تلك اللحظات بالذات لم تفارقانى رغم مرور الدقائق والساعات ، كان وجه هنية من تلك الوجوه المريحة المستريحة التى تشدكم على الفور الى أحضانها ، وتشعركم بالقربى منها والمودة لأنها أليفة اليكم قريبة منكم ، فى عينيها نظرات دافئة حنون ، وفى ابتسامتها بساطة وكأنها تتربع على الشفتين فى استرخاء ، رداؤها ينسدل فوق جسد استنام بين الطيات ، لكنه فى بعض الأحيان يتقلب فى رعشة هائنة مغلفة ببسمات خجل واحمرار وجه !

ألم أقل لكم ؟!

أنا انسان خيالى ، أختطف الاشياء من قلب الواقع وأحلق بها فى سماوات أفكارى ومثلى ونظرتى للحياة ... لذلك ، فسرعان ما اختطفت نظرات هنية وابتسامتها ، ورحت أنسج حولها كل ما يمكن أن ينسجه خيالى من أوهام تغذى « التجربة » وتجعل لها طعما !!

واحذروا منى ــ أيها السادة ــ فأنا أكاد أكذب الآن واندفع فى الكذب والتوليف ما شاء خيالى أن يكذب أو يولف ... لكننى بالرغم من ذلك أقاوم مقاومة شديدة ، فأنا على أى حال لست انسانا سيئا ، وليس فيما أصبو اليه من كذب شىء يضر بأحد ... لكنه احساس المذنب بالرغبة فى الدفاع عن نفسه وتبرير ما ارتكب من ذنوب ... سأقول لكم الحق ، وانتزع الصدق من نفسى انتزاعا لارغبة لى فيه ، لقد سررت لنظرات هنية أيما سرور ، انتابتنى رعشة انتصار فاضت بها نفسى فملأتها بالثقة

والتفاؤل ... سؤال يلح على ذهنى الآن وأنا أواجه فى نفسى ذلك الكذاب الذى يريد أن يتلاعب بكم وبالحقيقة معا ... هل كنت مخلصا فيما فعلته مع هنية بعد ذلك ؟!

أنا لم أفعل شيئا ... صدقونى وأقسم لم أفعل شيئا !

صرخة اعتذار أخرى لكن لاتهتموا بها ولا تستمعوا اليها ، لقد تلقفت نظرات هنية تلقف الخبير ... وفى الثوانى التى تلت ما فعله بى حسن مباشرة ، كنت أرتجف بالانفعال وأنا أتخيل ذلك العنصر الرائع فى التجربة ، والذى سيعطيها لونا جديدا وطعماآخر .

الحب !!

سال لعابى فى شره الذئب الجائع ، ورددت على النظرات بالنظرات ، وعلى الابتسامة بابتسامات ... وكلما مضت لحظة ، كسبت فيها موقعا جديدا ... وعندما طلبت منى أم هنية ـــ زوجة المعلم فتح الله ـــ كوبا من الشاى ، حملته لها على أنظف صينية ، وغسلت الأكواب بنفسى ، واقتحمت جلستهم تسبقنى ابتسامة عريضة ، ثم سددت عينى إلى عينى الصبية فأرخت نظراتها اضطرابا ... وهمست أنا غير موجه حديثى لأحد :

« صباحكم قشطة ان شاء الله ... أيها خدمة !! »

رفع المعلم فتح الله عينيه عن كتاب كان يعبث به ويربت عليه بأصابعه متفحصا وكأنه يستشف ما بداخل ثمرة بطيخ مغلقة :

« صباحك فل يا اسطى براهيم ، نورت الحته ! »

« الله ينور عليكم يا معلم فتح الله ! »

حديثى موجه اليه ، ونظراتى موجهة اليها ، والابتسامة تصافح الابتسامة ، والأم ترقب كل شىء من طرف خفى ، ولا تعترض ... تبتسم هى الاخرى وكأنها تبارك وتدعو للأمل أن يأتى ، وللستر أن يحتضن ابنتها .

ولا أترك فرصة دون أن أنتهزها ...

بائع الثلج يغزو الدرب من أوله بصياحه وكركرة عربته الصغيرة ... حرارة الشمس تلهب الألواح البيضاء وتذيبها وهو يعدو صائحا فى العيال والمارة أن يوسعوا له الطريق .

قطرات المياه تتساقط ناصعة لامعه كحبات لؤلؤ سائل وتترك خلف العربة شريطا من القطرات سرعان ما يجف وتمتصه الارض العطشى من حرارة الشمس ، ويصيح بى المعلم محمد :

« التلج يا براهيم ! »

ويضع الرجل فى صندوق المثلجات قطعة بقرش ، ثم يلقى بالقرش فى عبه ويمضى صائحا فى الناس والعيال أن يوسعوا له الطريق فالألواح تذوب ، وشيطان الرغبة يراودانى ، فأكسر من الثلج قطعة صغيرة أضعها فى كوب لامع الجدران ملىء بالماء تسبح فيه قطعة الثلج بجلال ... وينظر الى المعلم محمد بجانب عينيه دهشا :

« حاتعمل ايه يا اسطى ؟! »

ولا أرد عليه ... كنت مشغولا بما أنا مقدم عليه ، أقراص الطعمية أمام هنية وأمها كادت تنفد ، كوب شاى انقسم بينهما الى نصفين ... نصف للأم والنصف الآخر لذات العينين الساهمتين ويهبط عليهما كوب

الماء المثلج كأنه هدية من السماء ، اتسعت حدقتا الام دهشة ، واتسعت حدقتا هنية بالسعادة ، والكوب يأخذ مكانه أمامهما بين أقراص الطعمية وبقايا الخبز الطازج ... والأم تتمتم غير مصدقة :

« ميه بالتلج ! .. ميه بالتلج ؟! »

« بألف هنا وشفا ! »

قلتها وكأنى أقدم لهما بطاقة تحمل اسمى وعنوانى ووظيفتى وأتقدم لهما بطلب حلال ... ذلك ان الابتسامة اتسعت على وجه الأب والأم معاً فى ترحيب غير مبالغ فيه ، وعلى غير العادة — كما أخبرنى المعلم محمد — أصبح المعلم فتح الله فى ذلك اليوم كريما جوادا يطلب الشايات والقهوات ويدعو الاصدقاء والزبائن ... وكلما نادى الأب أو نادت الأم : يا براهيم ... سارعت لتلبية النداء قبل أن يتم : « أنا خدام » !

ويهمس المعلم محمد وهو يقترب منى ويتحدث داخل أذنى فى قلق :

« ايه حكاية التلج دى ؟ »

الدنيا حر ، ومياه الحنفية ساخنة يا معلم ... الخوف يتلاشى والقلق يذوب والرهبة تنمحى ليحل محلها الاطمئنان والثقة ... المعلم محمد يعارض فلو فتح للزبائن هذا الباب لما استطاع أن يغلقه مرة أخرى وكيف تأتى المقهى بعد ذلك بمصاريفها ، لكننى مرح سعيد أسمع كلامه بأذن وأفرغه من الأذن الأخرى وأقفز هنا وهناك ألبى النداءات وأحمل الطلبات وكأن طاقة سماوية فتحت لى أبوابها ، يرتبك الرجل ويعود الى مكانه خلف النصبة مبتلعا أعتراضه ، يبدو عليه القلق والحيرة لا يدرى ماذا يفعل ...

ما الذى كان يحدث وقتها ؟ ... ما الذى كان يحدث ؟!

لا أدرى ... أبدا لا أذكر شيئا بالتحديد عن تلك اللحظات فقد مضت وتاهت فى زحام أحداث اليوم الكثيرة ... أغلب الظن أن الانسان لا يمتص من السعادة أو الاحساس بالفرح الا بقدر ما يحتاجه ، كأنها مخدر اذا ما زال تأثيره زالت الراحة وعاد الألم أشد وطأة مما كان ... كنت فى تلك اللحظات بالذات — أيها السادة — أدخل منطقة التخدير ، لا تعنينى مراحلها بقدر ما يعنينى انتظار الغيبوبة الآتية بعد ذلك !

عيناى حائرتان !

عين هنا أو هناك ، والعين الاخرى عند هنية وبجوارها ، لا تبتعد ... شربت أمها نصف الكوب البارد ثم أعطتها النصف الآخر ، فرفعت الكوب الى شفتيها فى نفس اللحظة التى ارتفعت الىّ فيها عيناها ... ورأيت العينين تبتسمان ابتسامة تعلن للملأ عن نفسها ... وعندما هبط الكوب مغادرا طرف الشفتين ، لم تهبط العينان عن وجهى ، وانما سرت منهما الابتسامة الى الشفتين وفاضت على الوجه كله فغمرته ... سال لعابى وقفز قلبى بالفرح الغامر وأيقنت على الفور أن التجربة ستكون مثيرة ، وانى سأعيش مع حياة الناس قصة حب تبدو لى على البعد لذيذة كل اللذة !!

« اية ... أين أيام الشقاوة ! »

هكذا حدثت نفسى ، فنظرات هنية — كالسحر — كانت تنقلنى الى الماضى وتعبر بى السنوات فى لمح البصر ، لتستقر عند أحاسيس طال البعد عنها ، والوحشة لها !!

الحقيقة ـ أيها السادة ـ انى لست ذئبا بمعنى أو بآخر ، فأنا انسان أهتدى فى حياتى بمثل عليا لا أحيد عنها ... غير أنى أستطيع أن أعرف ـ الى حد كبير ـ ما الذى تفكر فيه السيدة أو الآنسة التى اتحدث اليها . أستطيع أن أخمن وأفرض وأخرج من الفروض بنتائج يقينية نادرا ما تخطىء .

وأنا ـ أيضا ـ لست قديسا بطبيعة الحال ولست منزها ... أنا كغيرى من الرجال أعشق فى المرأة أشياء معينة ، وأكثر الاشياء التى تبهرنى هى البساطة ...

وكانت هنية ـ طبعا ـ بسيطة !!

قد أدعى أمام الناس الصدق والأمانة ، لكنى لا أحافظ عليهما بينى وبين نفسى بالقدر الكافى ... أسعد كثيرا لصداقة امرأة ، وتشتد بى السعادة اذا ما دخلت فى أعماقها وجست خلالها وعرفت مخابئها ... هذا يرضينى ويكفينى لكنى غالبا ما أخرج من تلك الأعماق لأبحث عن أعماق أخرى ، بحماس ولذة ، تفوقان حماسى ولذتى الأولين ...

و .. وو..و . و .و ..و

وعلى كل حال فالصدق فى مواضيع كهذه له أكثر من وجه .

لقد كنت شبيها بحسن وأنا صغير ... هذه ملاحظة عابرة تقطع تسلسل الموضوع حقا ، لكنها خطرت ببالى ، وربما يفسر لكم هذا سر حبى له وتعلقى به ... فأنا انسان أعجب الى حد ما بشخصى وأحبه ، لكنى لا أوافق نفسى على كل تصرف أتصرفه أو أقدم عليه ... وليس من

مبادئى ومثلى أن أعيش قصة حب زائفة ، أنا لا أستطيع ذلك أبدا ... لذلك ، فعندما دق قلبى أمام هنية دقة واحدة عنيفة ، استولت على الدهشة تماما ، فكيف يدق قلبى ، وهل من الممكن أن أحب بهذه السرعة ؟! ...

و ... وعلى أى حال فالأمر هنا صعب التفسير ، لكن الذى أذكره أن شيئا مجهولا كان يدفعنى الى الخوض مع هنية فى قصة تعطى للتجربة حياة نابضة ، أو حتى قصة تبقى للذكرى ... ولم تكن التجربة هى العامل الأول ـ قطعا ـ فى اندفاعى هذا نحو هنية ، أو بمعنى أصح فى قرارى هذا الذى اتخذته بخوض التجربة حتى الثمالة كما يقولون ... فقد كان هناك عامل مهم آخر ... احساس كهذا الذى يسيطر على الانسان وهو مقدم على شىء مجهول، كأنه ـ بالضبط ـ يدخل مكانا لم يره من قبل أبدا ، ولا يعرف ما بداخله من مفاجآت سمع عنها آلاف المرات ، وعشقها على البعد لأنه موقن بجمالها وروعتها ... هو نوع من حب الاستطلاع أيضا سيطر على حتى عندما لم أجد جوابا لسؤال راح يتردد فى ذهنى بلا انقطاع : وماذا بعد ؟! ... وماذا بعد ؟! ... وماذا بعد ؟! ...

وقعت فى الحيرة حقا . لكن حيرتى لم تطل كثيرا ، كانت لذة الاستطلاع واكتشاف المجهول عندى أقوى من أى شىء آخر ... وجد ضميرى مبررا لما كنت مقدما عليه ، فنام واستراح !!

ولم يطل الأمر بها أو بى ... احساس بذاتى أعطانى ثقة جعلتنى أتحرك وكأنى فارس غزا بلدا وراح يتمايل فيها مزهوا ... كنت أعمل وألبى الطلبات

وأسرع الى كل الناس فى ضجيج يلفت النظر ، دب النشاط فى أوصالى وانتابتنى نشوة غامرة وأنا أسمع صوت أم هنية ينادى عبر الدرب :

« سى براهيم .. سى براهيم ! »

فى لمح البصر كنت أعبر الدرب لأنحنى فوق الصينية والأكواب الفارغة ، وأصافح بالعين نظرات هنية المتكسرة ...

« ايها خدمه تانى ... ايها خدمه والنبى ! »

« الهى افرح بيك تدينى شوية ميه أحسن ريقى ناشف ! »

« عنيه ... »

من جديد رحت اكسر من الثلج قطعة وضعتها فى كوب ماء كان يضوى تحت وهج الشمس اللافح ... بدأت أدخل عتبة تجربة من نوع آخر ... التردد يمسك بتلابيبى ، وسؤال يلح على ذهنى كسوط عذاب لا يكف عن ملاحقتى ...

ماذا بعد ؟!

ولا أجد الجواب الا فى خفقات قلبى التى كانت تشتد كلما مرت لحظة ، كنت أشعر وكأنى أنزلق الىّ بئر بلا قرار ، بئر كانت تدفعنى اليها عينا هنية الساهمتان المتطلعتان الىّ من بعيد ... فى أعماق البئر عالم كعالم الأساطير ، هناك قصور الحب المذهبة وأطباق الفاكهة النادرة ! ... اختفت نظرات الدهشة والسخرية ، وحل الاطمئنان فى العيون محل الشك والود يجذب القلب الى القلب ، والكلمة الحلوة تفتح أمامى كل الابواب ... وأصبحت نظرات هنية تحتوينى احتواء ، أصبح ترحيبها كأنه

ضمات أحضان ملهوفة .

قطعت المسافة من الدرب الى ورشة التماثيلجية عشرات المرات دون أن أكف ، عرفت طبائع الزبائن فكان يكفى أن يصيح العجلاتى : « يا براهيم !» .. لأصيح بدورى : « شاى وصلحه للمعلم منصور ! » ... وكلما مضت لحظة ، كلما تحركت فى الدرب أكثر ، علا صوتى وملأ الأسماع وأنا أردد بين الفينة والفينة ما يطلبه الزبائن وكأنى ولدت لأعمل جرسونا .

بجوار المقهى تقوم مكتبة السعيدية ، صاحبها — المعلم كامل — لا يشرب سوى زجاجات الاسباتس المثلجة ، ويطلب لكل زبون طلبا ، ويلعب الطاولة وينفع المحل بما لا يقل عن ثلث دخله فى اليوم ، بعد المكتبة السعيدية تقف « الحلوانية » فى دكانها الصغير تبيع الحلوى للصغار والسجائر للكبار وتشرب الشاى فى اليوم أربع مَرات ... المسافة ما بين الحلوانية والعجلاتى هى عرض الدرب بالتمام ، فالدكان أمام الدكان ، والوجه طوال النهار فى الوجه ، والحلوانية أرملة فى منتصف العمر مات زوجها فوقفت فى دكانه تبيع وتشترى وتعيش وحيدة شريفة لكنها لا تسلم من الطمع .. والأسطى منصور شهرته فى الدرب أنه رجل ذواقة ، يحب من الطعام كل اصنافه ، فهو أكول نهم الى الحياة ، والناس أحيانا لا تجد ما تقوله ، وفى الثرثرة متعة وفيها أيضا فوائد منها كشف المخبوء وفضح المستور !! .

أمام مكتبة عمران تجمع لفيف من الطلبة وراحوا يتناقشون بصوت

عال فى الادب والفن ، ويفاضلون بين هذا وذاك من الكتاب والادباء ، لكن عيونهم لا تكف عن تسلق الجدران بين لحظة وأخرى محاولين كشف ما وراء النوافذ من أشباح كانت تظهر وتختفى فى حركات سريعة وعصبية لاتلاحقها سوى الابتسامة واليد التى تمسح الشعر فى سلام يظنه الحبيب خافيا عن الناس ، وكل العيون ترمقه ... فتاة تعبر الدرب مسرعة ، تحت ابطها كتاب أزرق ضخم ، ويهمس المعلم محمد فى إذنى :

« آهى دى البت الدكتورة : ... بنت أصحاب البيت ! »

ويخفت صوته أكثر ، ويزداد ميله نحوى هامسا وكأنه يدلى الى بسر رهيب :

« لو طلعت عندهم فوق حتلاقى بعيد عنك الروس والايدين والرجلين منطورة فى كل حته ... أصلها بتدرس ... بتذاكر مع جتت البنى آدمين اللهم احفظنا ! »

وجرت عيناى خلف طبيبة المستقبل ... فتاة فى العشرين طويلة ملفوفة القوام ، سريعة الخطوات ، تضم الى صدرها الكتاب وتترك لشعرها العنان وتنظر للناس من خلال عينين وضعتهما فوق السحاب ! ... اختفت الدكتورة عند ناصية الجامع ، فنهض شاب كان يجلس أمام مكتبة عمران منذ ساعتين لا يكف عن تقليب الكتب والمناقشة والصياح والصراخ والادلاء بالآراء فى صوت يسمعه الجميع ، وعيناه لا تتعبان من تسلق الجدران والتعلق بالنافذة التى تعلو باب المقهى ... أسرع الشاب فى سيره واختفى هو الآخر عند ناصية الجامع ، سائرا فى نفس الطريق ، دون أن يرى نظرات الصحاب التى تبودلت من بعده ، ودون أن يسمع أحدهم

وهو يصفق طالبا منى « حاجة ساقعه ! »

ارتدت عيناى نحو هنية لأرى على وجهها علامات كرب وغضب ، لفحتنى عيناها بنظرة كالسوط ، ثم ارتدتا عنى الى بعيد لتراقب الحارة فى غيرة تعلن عن نفسها بلا مواراة ، وكأنها تقول أن الشرط نور ، حتى ولو كانت الغادة طبيبة لا سبيل اليها من جرسون مثلى مهما طال النظر والترقب !

وابتسمت بدورى وأنا أحمل « الحاجة الساقعة » الى طالبها الجالس عند مكتبة عمران مندفعا فى طريقى بنشوة ... لكننى توقفت وتسمرت قدماى فى الارض وأنا احملق فى « الاسناوى » الذى ظهر فجأة وكأنه نبت من أرض الدرب بقوة سحرية ... توقفت وأنا أحملق فيه بدهشة وحذر وترقب ... وكان قلبى يدق !!

٦ ــ رأيته أمامى وقد انتصب فى مدخل المقهى وكأنه فرع طويل سقط لتوه من شجرة جرداء ، كان يطل على بوجه داس الزمن بقدمين غليظتين فوق ملامحه فطمسها فى بعضها البعض وتداخلت ، على خده الأيمن أخدود عميق شديد السواد ، أخدود صنعه العمر بعد أن امتص الحياة من تحت الجلد فتغضن ، على رأسه لاسة التصقت بالجبهة والتحمت بها فسرى لونها المحترق بعرق الجبهة وتراب الطريق الى قماشها ، دُفنت الأذنان تحت اللاسة فاختفى نصفهما الأعلى ... ووسط هذا الوجه كانت تبرق عينان تفيض منهما الحياة فى توحش وشراسة ... أكثر ما يميزهما ــ أيها السادة ــ تلك الحيوية البادية فى انسانيهما الشديدى السواد والعمق حتى ليخيل للناظر اليهما أنهما بئران لاقرار لهما .

وقف الاسناوى أمامى بجسده النحيل الذى ينسدل على جانبيه ذراعان طويلان ، كأذرع القردة ، تصل أطراف كفوفهما الى ما بعد الركبة بقليل ، يحمل أحدهما صفا طويلا من الكتب القديمة وقد تشبثت أصابع

الكف بجلباب ممزق يكشف عن نصف الصدر الذى تميزه ضلوع خطت من تحت الجلد وكأنها علامات تعذيب مر عليها زمان طويل ... سدد الاسناوى الى نظرات مليئة بالدهشة ، راح يتفحصنى من أعلى الى أسفل مرة ومرتين وابتسامته تزداد اتساعا ، ثم صاح بصوت مشروخ صدىء :

« يبقى الكلام الى قالوه صحيح يابو النجا ! »

ابتسمت هنية وتهامست مع أمها وتغامزت مع سعدية وأشارت نحوى من طرف خفى ، تحرك الاسناوى مقتربا منى فحجب عنى هنية ، رفع المعلم فتح الله عينيه من فوق الكتاب الذى كان يحمله وارتسمت على وجه ابتسامة من يعرف مقدما ما سيدور أمامه من أصوات ... صاح المعلم محمد بصوت محتج :

« ما تدخل وانت ساكت يا اسناوى ! »

لكن الاسناوى لم يدخل ، ولم يسكت ... فتح فما خلا الآن من سنتين فى مقدمة فكية ، احداهما على يمين الفك الأعلى ، والأخرى تقف شامخة على يسار الفك الأسفل ، وبينهما خواء يتلاعب فيه لسان الاسناوى بحرية ...

« بقى جبت صنايعى يابو النجا ؟! »

« ماتتلم يا اسناوى ! »

« اسمك ايه يا جدع يا طويل يا هايف انت ؟! »

كان يوجه حديثه الىّ ، وكان لابد لى من الرد بأدب :

« محسوبك براهيم يا معلم ! »

« أنا الاسناوى ... عارف مين هو الاسناوى ؟! »

« اللى ما يعرفك يجهلك يا معلم ! »

« طب خد الكتب دى شيلها عندك لحد ما أجيب اللقمة وآجى ! »

أسرعت فى حمل صف الكتب الى ركن المقهى ، صفق الاسناوى بكفيه فى ابتهاج وهو يستدير ناحية الدرب ، ويطالع كل من فيه بصوت ساخر :

« أبو النجا جاب صنايعى ياولاد ... القيامة حاتقوم وحياة النبى ! »

وانفلت الاسناوى يهبط الرصيف الى الدرب فظهر لعينى وجه هنية من جديد ، لم تتبع عيناها طريق الاسناوى كما فعلت كل العيون ، لكنها نظرت الىّ وكأنها تشجعنى ، فالتفت الى المعلم محمد أسأله :

« هو الاسناوى بيشرب أيه ؟! »

« شاى وجوزه ... الشاى بتعريفه والجوزه كمثل ! »

اختفى الاسناوى من الدرب دقائق وترك وراءه على كل فم تعليقا ، وعلى كل وجه بسمة ، وعلى كل لسان حكاية ... قال لى المعلم محمد بصوت مرتفع واضح النبرات :

« أوعى تاخد على خاطرك منه ... ده هوه كده انما قلبه أبيض !! »

لم أرد عليه فعاد الى الحديث مكملا بنفس الصوت المرتفع الواضح النبرات :

« ده كان غنى قوى ، أول من تاجر فى الكتب القديمة فى البر

كله ... فتح الله وكامل دول كلهم صبيانه ... انما عيبه الفنجرة ... أصله فنجرى قوى ، اللى فى جيبه مش بتاعه ... وغير كده بعيد عنك الهلس ما ينفعش أبدا ... ده مره .. .. .. »

رحت أسمع المعلم محمد بأذن ، وأتتبع الحديث الدائر فى الدرب بالأذن الاخرى ... وتصطدم عيناى بوجه حسن ذى العينين الشديدتى اللمعان ... كان حسن ـ أيها السادة ـ لا زال منزويا فى مكانه منذ أن فعل فعلته معى ، كان لا زال واقفا بجوار الحوض وكأنه فى منفى يتطلع من وراء أسواره الى ما يجرى فى العالم خارجه ... منعت المعلم محمد من ضربه ، وحكمت عليه بغسيل الأكواب والملاعق وكنس المقهى ورشها المياه كل ساعة ... استسلم ، لكنه راح يراقب كل شىء بهاتين العينين الواسعتين الشديدتى اللمعان ، ولم يطل الأمر بالمعلم محمد أو بالناس السادرين فى سيرة الاسناوى فقد عاد هذا بسرعة وهو يحمل فى يمناه رغيفا انطوى بين أصابعه الطويلة على قرطاس ظهرت فيه البقع وكأنها تعلن عن عدد أقراص الطعمية فى داخلة ... وقف فى منتصف المقهى وراح يحدجنى بنظراته من جديد ، لكنه ما لبث أن صاح بصوته المشروخ الصدىء :

« لسه ما عرفتش أنا مين ؟ ... أمك اسمها ايه ؟ »

ورد عليه المعلم محمد فى حدة :

« وحاتطلع مين ياخى ؟ ... ما تتلقح بأدبك وانت ساكت ! »

وكأن الاسناوى لم يسمع شيئا ، فتح فمه وراح يضحك ثم أخذ يزعق بكل صوته وهو يتطوح يمنة ويسرة ملوحاً بذراعه وكأنه يخطب فى جمع من الناس :

« أنا المعلم أسناوى يا اااد ... شايف المعلمين اللى فاتحين مكتبات دول وعاملين كتبية وبيفهموا ؟! ... كلهم صبيانى ، أنا معلمهم الكبير ... الواد فتح الله اللى زى العجل ده أنا اللى علمته الكار ، فاهم ... يمكن انت عمرك ما مسكت كتاب فى إيدك ، ويمكن لا تعرف تقرأ ولا تتنيل تكتب ، انما كار الكتب ده أنا صرفت فيه ألوفات ، وكسبت فيه ألوفات ... مكانش فى مصر دى كلها الا العبد لله ... كنت مشغل أفنديه ومستوظفين عندى على العربيات ، كانوا يطلعوا من الديوان والا المدرسة ويسرحوا بالكتب فى السيدة ... لكن كله راح فى الهوا ... أنا نزهى ، أحب أفنجر وأصرف والفلوس ما تهمنيش ولو كانت ألوفات ... عرفت بقى أنا مين يا اااد ؟ ... أجرى هات لى المزاج وابقى خلى بالك منى حبتين ... أجرى يابنى المشدقه ! »

أسرعت لأعد الصينية ، وأسرع المعلم محمد يعد الشاى ، ووضع حسن فوق الصينية كوبا مليئا بالماء ، وجلس الاسناوى على مقعد بجوار صف كتبه القديمة وأخذ فى التهام الرغيف بأقراص الطعمية بصوت مسموع ... تحول فى لحظة من انسان الى آلة تمضع ... رأيت عينيه — أيها السادة — تتعلقان بالسقف ولا تغادرانه أبدا ... أصابعه تعمل بحنكة ودراية تقطع الخبز وتحشوه بالطعمية وترفعه الى الفم الخالى الذى كان يمضغ بلا انقطاع وفى انتظام غريب ، نبتت قطرات العرق على جبين الاسناوى وتكاثرت ثم راحت تنزلق كالفيضان فى أخاديد وجهه لتمتزج باللعاب الذى كان يسيل من جانبى فمه الى الذقن لتتساقط منها على رغيف العيش وأقراص الطعمية وتمتزج بهما ... حملت صينية الشاى اليه وأسرعت أعد

الجوزه دون أن تهتز فيه شعرة ، دون أن يتحرك أو ينطق ، فقط ... كانت تصدر عنه فى بعض الأحيان أصوات غريبة كانت تنقطع بين الحين والحين كلما تكورت اللقمة فى حلقه لتتزلق منه الى المعده ... برقت فى ذهنى فكرة فأسرعت الى صندوق المثلجات وكسرت قطعة من الثلج أسرعت بها الى كوب المياه أمامه بعد أن غسلتها جيدا ... لكنه لم ينتبه . انتهى من الطعام ومسح كفيه ببعضها فلمعتا من أثر الزيت العالق بهما من أقراص الطعمية . ثم رفعهما الى وجهه فمسح بهما العرق واللعاب ... وأمتدت يمناه على الفور الى كوب الشاى ، وامتدت يسراه لتقبض على الجوزة التى كنت أحملها بجواره ... وراح يرشف من الشاى رشفة ، ويجذب من الجوزة نَفَساً ، حتى أتى على الشاى وتعميرة المعسل ... فتجشأ .

بعدها فقط رأى كوب المياه !!

رآه ناصعا لامعا تتهادى قطعة الثلج فوق سطحه فى خيلاء ... ففغر فمه ، ورفع حاجبيه دهشة ... ظل صامتا لثوان وكأنه غير مصدق ، ثم اختطف كوب المياه وهو يصيح :

« ايه اللى جرى فى الدنيا يابو النجا ... ميه ساقعه ؟! »

راحت عيناه تترددان ما بينى وبين المعلم محمد وكأنه يسأل عن الفاعل ، صاح فيه المعلم محمد وهو يردد بصره هنا وهناك وكأن جريمة ارتكبت :

« ما تطفح وانت ساكت ... حاتعمل لنا زفه ؟ »

وقد عمل الاسناوى زفة بالفعل ، وقف بباب المقهى والكوب فى يده ، وراح يرشف المياه المثلجة فى صوت منغم ومسموع ، وسرعان ما

أفرغ المياه فى جوفه ، فتنهد ارتياحا ، ونظر الى الكوب فرأى قطعه ثلج باقية لم تذب بعد ، فصاح فى سعادة :

« واد يا براهيم ... حط لى شوية ميه فوق حتة التلج دى ! »

وقتها إبتسمت هنية فى وجهى كما ابتسم الجميع وهم يرقبون الاسناوى فى شغف .

ملأت كوب المياه من جديد ، وحمل الاسناوى كتبه ودفع لى قرشا وازدرد كوب المياه ، وابتسم فى وجهى وهو يردد :

« تعيش يابو خليل ... واد عتره بصحيح ... انت منين ؟! »

لكنه لم ينتظر منى جوابا ، فقبل أن أفتح فمى كان قد حمل صف الكتب من فوق المقعد ، وانزلق مسرعا الى الدرب ، واختفى منه تماما .

٧ ـــ انتصف النهار منذ ساعتين وهجع الجميع وخلا الدرب من المارة ... كاد أن يصبح مهجورا والشمس تصليه بنار الظهيرة اللافحة ... جفت مياه الرش وانبعثت فى الجو رائحة عطنة ، سال العرق ونعست العيون وأوت فى مداخل البيوت الكلاب والقطط وصغار العيال ... وهدأ كل شىء وأسن ، ومالت الشمس بعد ذلك وسحبت فوق الدرب رداء من الظل الخانق !

دقت ساعة الجامعة فى الراديو الثانية والنصف ، وقُرِئَت نشرة الأخبار ، وتُلى بعدها التعليق ، وأمتصت الحرارة كل القوى فهمدت ، وترك المعلم محمد مكانه خلف النصبة لأول مرة منذ الصباح ، وجلس فى ركن المقهى على مقعد ومدد ساقيه على مقعد آخر وأسند رأسه الى الحائط وغرق فى سبات عميق .

بعدها وجدت نفسى وجها لوجه مع عينى حسن ... وحدنا !!

وضعت الخرطوم فى صنبور المياه ورششت الدرب أمام المقهى عدة مرات لا طلبا لنسمة ندية وانما هربا من هاتين العينين الواسعتين اللتين كانتا ترمقانى بنظرات صامتة . اختفى المعلم فتح الله وزوجته وبقيت هنية وحدها داخل المكتبة . كما اختفت سعدية من دكانها وبقى أبوها يواصل كواء الملابس ... وراحت هنية تطل بين الحين والحين من وراء صف كتب كان موضوعا فى المدخل وهى ترمينى بنظرات ساهمة غارقة فى الاحلام ... استيقظ ضميرى لثوان فرحت أفكر فيما يمكن أن يحدث لو أن صبية مثل هنية أحبتنى حقا ... لكن الأمر لم يأخذ منى وقتا فقد بدت لى المسألة بسيطة كل البساطة ، لذيذة كل اللذة ، وما دامت الغاية تبرر الوسيلة فلا حرج ، وكانت غايتى هى الفن وخدمة الناس ونقل حياة الناس للناس !!

رحت أتلقى ابتسامات هنية بصيحات حب كانت تعلو مرة وتهمس مرة ... فكرت فى كل شىء ورتبت أكثر من خطة وقد أخرج معها غدا أو بعد غد ، وقد أستطيع ... أستطيع ... .

فى هنية شىء يجذبنى اليه جذبا حنونا ، لكنه قوى لا طاقة لى بمقاومته ، أنا أبدا لم ألتفت الى هذا الشىء ولم أفكر فيه كثيرا فقد كنت أحسه وأعيشه ، قليل من الخوف ينتابنى فماذا اذا كشف الناس الأمر ، وكيف أدافع عن نفسى ، وكيف ... وكيف ... و ...

ولا داعى للاطالة ، والاسهاب ، فقد كنت فرحا بالتجربة سعيدا بها ، ما حدث فى الصباح انتصار ولا يجب علىّ أن اهوّن من أمره ، عدت الى المقهى وجلست فى الداخل على مقعد وفردت ساق وسرحت بعينى فى

فضاء الدرب الملتهب ... مضت لحظات أفقت بعدها على صوت قدمى حسن وهما تتلصصان مقتربتين منى ، ترك الصبى مكانه بجوار الحوض وراح يقترب منى ببطء شديد ... أرمقه بجانب عينى وهو يتمسح فى البنك الكبير ، وينظف رخامته أو ينقل كوبا من مكانه دونما غرض أو فائدة ... التعب يهد جسدى هدا ، وساقاى يسرى فيهما تنميل يختلط بآلام راحت تنشر قدمى نشرا ... لكنها كانت بالنسبة لى آلام ألذ من الراحة آلاف المرات .

أصبح حسن على بعد خطوة منى ، واستدار ناحيتى وأخذ يحملق فى وجهى دون حراك ... أحسست بالحرج ولم أجد سوى الابتسام فابتسمت ، اشرت الى المقعد المجاور :

« ما تيجى يا حسن تقعد ! »

اقترب دون كلمة وجلس بجوارى على طرف مقعد وقد تدلت ساقاه فى الهواء ، وبالكاد لامست اطراف اصابعه أرض المقهى ... التفت نحوه ونظرت فى عينيه فخفض بصره وراح يعبث بأصابع قدمه الحافية فى تراب الارض من جديد .

« ايه رأيك فىّ بقى يابو على ... ... مبسوط منى ؟! »

قلت ما قلت دون معنى ، احساس بالحرج يختلط برغبة عنيفة فى ضم حسن الى صدرى ، كان فى جلسته هذه مسكينا مهزوما نحيل الجسد ، يبدو للعين كالشبح الممصوص ، ليس فيه سوى وجه تقاطيعه رسمت لتكون مثالا للبراءة ، تتوسطه هاتان العينان الغريبتان ... وكنت

أبتسم ابتسامة باهتة عندما رفع حسن رأسه نحوى قائلا :

« الا انت بتاخد كام يوميه يا براهيم ؟ »

فوجئت بسؤاله فضحكت بصوت عال والتفتت هنية نحوى وابتسمت ، لكن حسن لم يبتسم ولم يضحك وظل معلقا عينيه بوجهى فى انتظار رد على سؤاله .

اعتدلت فى جلستى نحوه فلم يخفض بصره هذه المرة بل واجهنى بنظرات واضحة مريحة ... اشعلت سيجارة فقال على الفور :

« انت شربت تلات علب سجاير لحد دلوقت ... بتجيب الفلوس منين ؟! »

اسقط فى يدى واضطربت حقا وضحكت كذبا وتلجلجت لكنى قلت له مراوغا :

« انت عندك كام سنه دلوقت يا حسن ! »

« حداشر ... لكن انت بتاخد كام يوميه ؟! »

حاولت الهرب منه دون جدوى ، يبدو للعين أصغر من سنه بعامين على الاقل ، هو نحيل — أيها السادة — صغير الوجه بحيث لا يمكن لأحدكم أن يعطيه أكثر من تسع سنوات ولو يوما وأحدا ... رد على سؤالى حقا لكنه قفز منه ليحاصرنى بسواله مرة أخرى ... ماذا أقول له وأنا لا أعرف كم يقبض الجرسون وكيف يعيش يومه ... خفت أن أذكر له رقماً يكشف جانبا من سرى ، ولم يكن أمامى سوى محاولة الهرب مرة أخرى :

« بتروح المدرسة يا حسن ؟!

« فى الشتا ... لكن هم بيدوك كام يوميه ؟! »

تمنيت أن يصفق أحد أو يستيقظ المعلم محمد أو تحدث كارثة لتنقذنى من عينى حسن وسؤاله الملح ... لكن شيئا فى ذلك الوقت لم يحدث فى الدرب الذى ظل غارقا فى الأسن والسكون ، بقى كل شىء على حاله وارتفع شخير المعلم محمد !!

اتضحت نظرات هنية وكشفت عن نفسها فى براح ... أصبحت نظراتها صريحة — أيها السادة — كل الصراحة ... تدعو ولا تصد ، ترحب فى هناء ، ويزداد الحاح حسن بجوار اذنى وهو يلحظ انصرافى عنه :

« هم بيدوك كام يوميه يا براهيم ... هيه ... بتاخد يوميه كام ؟ »

قالها وكأنه يسد على كل مسلك للهروب ، قالها بصوت عال

لابد لى أن أسمعه ، ونبرات واضحة بحيث خرجت كل كلمة تحمل معنى محددا لا تأويل فيه ، وبدأ يغزونى على الفور ذلك الاحساس بأنى فى معركة لابد لى أن انتصر فيها ... فقلت لحسن :

« تفتكر أنا استاهل كام يا حسن ؟! »

بلا تردد قال :

« لو أنا يعنى معلم وصاحب قهوة ... لو عندى يعنى قهوة يعنى ... وباشغل صنايعى زيك كده يعنى ... لو يعنى أنا كده يعنى ، اديلك ٢٥ قرشا فى اليوم !! »

ذكر الرقم وكأنه يضعنى به فى مصاف الآلهة ... لكنه لاحقنى على الفور :

« لكن انت بتاخد كام صحيح ؟! »

« وانت بتاخد كام يا حسن ؟ »

.. تحول الموقف الى كرة رحنا نتقاذفها فيما بيننا ... رد على حسن وهو يعتدل فى جلسته :

« سبعه صاغ ونص ... لكن انت ... .. »

صمت ولم يكمل ...

كان يبدو عليه وكأنه أيقن أن لا وسيلة لمعرفة أجرى ، بدا يائسا . يأسه مرسوم فى تلك الخطوط التى راحت أصابع قدمة الحافية تصنعها وسط التراب ... غمغم ببضع كلمات لم اسمعها ، ثم سألنى فجأة :

« انت ناوى تقعد على طول ؟! »

اختفت من عينيه كل نظرات التحدى ، انطفأ بريقهما فبدتا ذابلتين حزينتين ، ظل يرفع بصره الىّ ثم يخفضه الى الأرض وكأنه يريد أن يقول شيئا ، تمتمت شفتاه بلا كلام ، لم ينطق بحرف ... ووجدت نفسى أسأله بدورى :

« تفتكر أنا انفع قهوجى يا حسن ؟ »

بدا حديثه وكأنه يكمل كلاما قاله من قبل ، كان يتحدث بهدوء وخجل شديدين ، كان وكأنه يتوسل :

« أصل أنا يعنى لى أخوات كتير ... سته ... وأبويا كبير فى السن وخالى شغل ... ويعنى أنا اللى ... يعنى أنا باشتغل فى الصيف يوم بحاله ... لكن يعنى لما الشتا ييجى وتفتح المدارس ، باروح المدرسة الصبح يعنى وبعد الضهر هنا ... حاكم أنا البكرى ! »

« انت فى سنه ايه يا حسن ! »

« السنه اللى فاتت كنت كل يوم اشطب القهوة مع المعلم ممدوح ، اطلع من المدرسة الساعة تلاته وعلى طول يعنى ... نشطب وأروح البيت ... و ... ونجحت السنة اللى فاتت لكن أبويا بيقول السنه الجاية مش رايح ! »

« ليه يا حسن .. ليه ؟! »

« اصل يعنى سنه تالته فيها مذاكره كتير ، وكان لما باروح اذاكر بعد التشطيب بتفضل اللمبه والعة يعنى وبتسحب جاز ... وأصل يعنى لما أنا باشتغل نص يوم يعنى ... بأقبض نص يوم بس ! »

أحسست كأنى مشلول ، رحت ابحث بسرعة عن كلام لاقوله فلم أجد ... ابتسمت وضحكت وربت على كتف حسن وتحرك لسانى داخل فمى لكن صوتى لم يخرج ، رحت أعبث فى شعر حسن فنهض ودار حول نفسه حتى واجهنى ، أحسست بالالم كالسكين يمزق صدرى ، تحركت شفتاى فى محاولات يائسة للحديث فلم استطع ، كنت أريد أن أقول شيئا فى أعماق لا أدريه ، كان هذا الشىء كالجنين يريد أن يخرج الى النور لكن دونه آلاف العقبات ... ابتسم حسن وهو يقول :

« أنا باروح السيما كل يوم تلات » ... ثم دار حول نفسه مرة أخرى وجلس بجوارى على المقعد ورفع الى وجهه وأخذ يردد : « تيجى تخش معايا سيما ستار يوم التلات الجاى... تيجى ؟!... تيجى؟!... »

عبثا حاول الصبى أن ينتزع منى كلمة ، كنت كالأبله .. فمى مفتوح ولا شىء يخرج منه ، وراح هو يهز ساقية من جديد فيهز معها جسده كله

هزات رتيبة كهزات بندول الساعة : « ساعات أختى الصغيرة تيجى معايا ! » ... ما الذى يمكن أن أعرفة عن الناس ؟ ... ما الذى أريده حقا من مقهى أبو النجا بدرب الجماميز ؟ ... « الجمعه اللى فاتت شفنا فيلم آه يا نارى ! » ... إلى أين أسير وأين المفر من ذلك الخوف الذى راح يعربد فى صدرى من جديد ، خوف مبهم من شىء مبهم ... « انت اهلاوى والا زملكاوى ؟! » ... عاد حسن الى النهوض من جديد ووقف قبالتى مبتسما ثم تحولت ابتسامته الى ضحكة : « ايه يا براهيم ، مالك ؟! » ... وبآلام كآلام المخاض خرجت الكلمات من فمى تتعثر كأنها كأنها صرخات :

« لكن انت لازم تروح المدرسة يا حسن .. لازم تتعلم » .

انفجر حسن ضاحكا بلا وعى ، ثم كتم ضحكته بكفه وهو ينظر نحو المعلم محمد مرعوبا ، وظل المعلم محمد فى نومه فاختفى الرعب من عينيه وهبطت اليد عن الفم وعاد الى الوجه مرحه ، وقال حسن :

« احنا فى ايه والا والا فى ايه يا جدع ... انت مسطول يا براهيم ؟ »

« انت لازم تروح المدرسة ... لازم تتعلم ... لازم .. لازم ! »

« أبويا بيقول لأ ! »

« لكن انت لازم تقول آه ... لازم ... »

« باقول لك ابويا بيقول لأ ! »

« انت مش بتحب المدرسة ؟ »

« ما هو انا اصلى لما باشتغل نص يوم ... باخد نص يوم ! »

« وماله ... حتى ولو كنت حا ... .. »

« لكن انت ناوى تقعد معانا على طول صحيح ؟! »

قاطعنى بسؤاله فجأة ، لكن نبراته هذه المرة كانت قدخلت تماما من أى قلق ، بدا حديثه بعد ذلك خاليا من العصبية ، عندما ابتسمت له استجاب لابتسامتى بلا تردد ، قلت له وأنا أحول حديثى الى همس :

« فيك من يكتم السر يابو على ؟! »

اقترب منى حتى لفحت انفاسه وجهى وقال فى لهفة وتأكيد :

« والله والله والله ما تخاف ، وان شاالله انطس فى عينه ما تخاف !»

وضعت يدى على كتفيه ورحت أتملى فى تقاطيع وجهه ، واحسست انى ابتسم هذه المرة من قلبى ، فجاوبنى على الفور بابتسامة أشد اتساعا من ابتسامتى ، فقلت :

« اسمع ... أنا مش حاقعد معاكم الا جمعه واحده بس ... ايه رأيك ؟! »

وعلى عكس ما كنت أنتظر — أيها السادة — اختفت الابتسامة من وجه حسن ، وجمدت النظرة فى عينيه وهو يقول بلهفه :

« وحاتروح فين يا براهيم ؟ »

« الدنيا واسعه يا حسن . »

« لكن انت دورت على شغل .. »

« أبدا ... »

« طب مش لما تلاقى شغلانه فى حته تانيه ؟! »

هززت رأسى غير مصدق ، أحسست كأن شيئا ثقيلا يجثم على

صدرى ، ما الذى يريده حسن ؟ ... ما الذى يقصده ؟ ..

« مش انت عاوزنى امشى من هنا ياحسن ؟! »

« ابدا ودين النبى وان شاالله انطس فى عينيه أبدا ... دانت حتى يعنى ... ... »

وكف حسن عن الحديث ، ثم ساد بيننا الصمت للحظات كنت أرقب خلالها ابتسامة حسن وهى تولد من أعماق تقاطيعه وتشبع بها عيناه ، ثم شملت كل الوجه فبدت مشرقة كالنور الباهر ...

« ما تخافش علىّ يا حسن .. باب الله واسع ... والرزق كتير ومحدش بيموت من الجوع ! »

وانتفض حسن وهو يتنهد من اعماقه بارتياح ، لم يقل شيئا لكنه انفلت فى خفة ثم دار حول البنك الكبير ووصل الى النصبة فلم يعد ظاهرا منه سوى رأسه ، وكان يقول :

« تشرب شاى يا اسطى ... انت ما شربتش شاى طول النهار ! »

وراح على الفور يعد لى كوبا من الشاى !

٨ ــ « ايه يابو خليل ... انت نسيتنا والا ايه ؟! »

« أهلا يا أسطى فاروق ... أيها خدمه ! »

قلتها وأنا أنتفض واقفا ... فقبل أن أشعل السيجارة ، وقبل أن أرشف رشفة واحدة من كوب الشاى الذى أعده لى حسن فى لون الحبر وقدمه لى فوق صينية كأى زبون محترم ، قبل أن أستريح لاحساسى بالتعب وهو يتحول فى عظامى الى خدر كان يسرى فى مفاصلى ... كان الاسطى فاروق يبتسم وهو يطلب منى :

« اتنين شاى وواحد قرفه وكباية القهوة بتاعة الاسطى عبد السلام ! »

« عنيه حاضر ، هوا يااسطى ! »

« وماتنساش والنبى يا براهيم كام كباية ميه نبلع بيهم اللقمة ! »

« حاضر ! »

عاد الاسطى فاروق من حيث جاء ، وانفلت حسن بسرعة يعد الطلبات أمام النصبة ، ورحت بدورى أجهز الصينية وأكواب المياه ... لحظتها بالذات ، تذكرت انى لم أذق طعاما منذ أن استيقظت من النوم ، وتنبهت الى أنى عطشان ... فتحت صندوق المثلجات وحملت قطعة الثلج الباقية لأغسلها ، كانت قطعة تملأ كف رجل ، ووجدتنى أنهال عليها تكسيرا حتى فتتها الى قطع صغيرة وضعتها جميعافى أكواب المياه فراحت تتمايل على السطح صانعة مع الجدران نغما رطبا ، قلت لحسن وفكرة تنبثق فى ذهنى كالوهج :

« جهز انت الطلبات لحد ما آجى لك يا حسن ! »

نسيت جوعى وعطشى وأنا أحمل الصينية وأندفع بها عبر الدرب تلمع فوقها أكواب المياه المثلجة ، انثنيت الى اليسار متجها نحو ورشة التماثيلجية ...

« الميه يا اسطوات ! »

وجدتهم متناثرين فى أركان الورشة الصغيرة الضيقة وهم يمضغون الطعام فى صمت ، ما ان دلفت الى الداخل وصحت صيحتى حتى ارتفعت نحوى كل العيون ثم انزلقت الى الصينية ، تبادلوا النظرات فيما بينهم واتسعت عيونهم دهشة ، ثم قال الأسطى رمضان بشفتيه الغليظتين البيضاوين :

« ايه ده يا أسطى براهيم ... ميه بالتلج ؟! »

نفس الدهشة التى أصابت الاسناوى ، الأيدى تتخاطف الاكواب

وتزدرد المياه بسرعة ولهفة ... وتبقى فى الاكواب بقايا قطع الثلج فيصيح الأسطى عبد السلام :

« والنبى يابو خليل تناولنى القلة اللى جنب الباب ! »

ولكنى لا أناوله القلة وإنما آخذها وأصب بنفسى فى الأكواب حتى تمتلىء من جديد .. نظر الى الأسطى فاروق وقال :

« والنبى عتره يابو خليل وحياة مقام السيدة ! »

« أنا فى الخدمه يا اسطوات ، احنا عندنا أغلى منكم ؟! »

« تعيش يا أمير ... »

وسألنى الاسطى رمضان :

« لكن أبو النجا سابك تحط تلج فى الميه ازاى ؟! »

« كان نايم يا أسطى ! »

انفجروا ضاحكين والأسطى عبد السلام يسأل :

« انت منين يا براهيم ؟ »

« من هنا ! »

« وطول عمرك فى الصنعه دى ؟ »

لم يعد الكذب شيئا يحسب له حساب ...

« أبدا ... دانا كنت براد يا أسطى بس ... ربنا ما يحكم عليكم ، وقعت على دراعى انخلع ، قعدت شهرين فى المستشفى والدكتور قال لى .. .. .. »

« يعنى احنا ولاد كار واحد ؟ »

« آهى كلها لقمة عيش يا أسطى ! »

« معلش يابو خليل ، بكره تتعدل وتبقى عال ! »

غادرت الورشة الصغيرة وأنا أكاد أراهم من بعدى كيف يتحدثون عنى ، أكاد أرى نظرات الدهشة فى عيونهم ، وأسمع كلمات الاعجاب تنطق بها شفاههم ... كيف قلت ما قلت ؟ ... كيف نطقت بكل هذا ؟ ... لا أدرى .. كل ما أدريه انى كنت أندفع نحو المقهى لأعد الطلبات بحماس ، وانى استقبلت نظرات هنية من أول الدرب بزفه ... صحت بكل صوتى نشوانا :

« قلبى من الشوق بيعرج يا جميل ! »

ضحكت هنية ، وضحكت وأنا أرص الأكواب فوق الصينية من جديد ، حملتها على كفى وأسرعت عائدا بها الى الورشة ، اندفع حسن رافعا يديه :

« عنك انت يا اسطى ! »

لكنى كنت قد ابتعدت عنه وتركته على باب المقهى يتبعنى بعينيه ، كنت أسير فى الدرب متراقصا متمايلا الى اليمين واليسار وكأنى أسبح فى بحور من السعادة ... ما أن دلفت الى الورشة حتى صكت أذنى جملة كان يقولها الاسطى رمضان :

« حانفضل نلت ونعجن كل يوم كل يوم ... ما احنا لازم نرسى لنا على بر ! »

وضعت الصينية فوق « التزجه » التى تتوسط الورشة وسط صمت أطبق فجأة على المكان ، تشاغل الجميع بأكواب الشاى أو الطعام وراحوا

يمضغون أو يرشفون ، أدرت بصرى فيهم فلم تطالعنى سوى وجوه خفضت كلها وعيون تشاغلت بأى شىء ... أحسست أن فى الأمر شيئا فرحت أجمع الأكواب الفارغة وأقلب الشاى وأصب القهوة وأعجّل بالرحيل ... غادرت الورشة وفى قلبى شىء غريب ، شىء كالسر أسقطته جملة الأسطى رمضان فى صدرى ، وتركته معلقا بلا جواب ..

* * *

غير انى — أيها السادة — نسيت كل هذا بعد ثوان ، نسيته وأنا ألمح هنية تقف بباب المكتبة وفى يدها كوز نصفه صدىء ونصفه الآخر انطفأت لمعته ، وكلما اقتربت من المقهى خطوة ، اعتدلت هنية فى وقفتها كمن يستعد للحركة ، على بعد خطوات منها كانت سعدية تقف وعلى وجهها المغسول ابتسامة غريبة ... لابد انها جاءت أثناء غيابى عن المقهى ، شعرها لا زال مشدودا الى الشريط الأحمر ، وعيناها ترمقانى بتلك النظرة الجريئة المتفحصة ... خطوة أخرى وتبادلت الفتاتان النظر من جديد ، أسرعت متجها نحو المقهى وقد انتابنى الارتباك فناس الشارع قد بدأوا يظهرون والوجوه بدأت تطل من خلف الأبواب والنوافذ ، ما كدت أخطو داخل المقهى حتى توقفت وقلبى يخفق ... خلفى تماما كنت أسمع زحف الشبشب وهو يعبر الدرب فى بطء شديد ، أمامى وقف حسن منتصبا خلف البنك الكبير وعيناه ترقبان فى وعى وتوجس ، على وجهه ابتسامة كانت تنبع من تحت الجلد المشدود ، فى الركن الآخر من المقهى كان المعلم محمد لا زال غارقا فى تعسيلته وشخيره يرتفع بين الحين والحين ،

زحف الشبشب يقترب ويقترب فى لحسات طويلة لأرض الدرب ، التفت الى الوراء فطالعنى وجه هنية ، أمامى ، بينى وبينها شبران أو ثلاثة ، خلف الوجه مرقت الدكتورة بشعرها الهائش ونظراتها المتعالية وخطوتها السريعة القلقة ، ثم اختفت فى عطفة النيدى فى نفس اللحظة التى ظهر فيها الشاب الذى تبعها فى الصباح ، سلم على عمران وسحب كرسيا فى الظل وجلس عليه وهو يمسح عرقه ويجيل بصره فى الدرب الساكن ، فتحت فمى لأسلم على هنية ، لكن صوتها انساب الىّ فى سكون الظهيرة الآسن وكأنه حفيف مياه تنحدر فى غدير :

« سى براهيم ... عطشانه ! »

العين فى العين ، واليد حول اليد وبينهما الكوز ... رجفة تصيبنى مع تسلل أصابع هنية من تحت أصابعى الملتفة حول يدها والكوز معا ... ابتسمَت .. وابتسمْت ...

« من عنّيه ياست هنية »

« تسلم لى عينك ان شاالله ... بس عاوزاها بالتلج ! »

فرغ الثلج منذ ثوان فماذا أفعل ...

« غالية والطلب رخيص يا ست هنيه ... واد يا حسن ! »

« أيوه يا اسطى براهيم ! »

لبى حسن النداء فى شهامة من يقدر الموقف حق قدره ، اندفع نحوى مسرعا ورفع الىّ عينين تقولان : أؤمر ... أخرجت قرشا من جيبى ودفعت به اليه :

« روح هات بده تلج يا حسن ... طياره !! »

« هوا ياسطى ... هوا »

اختفى حسن ، وارتفع شخير المعلم محمد ، وخرج صوتى هامسا :

« من العين دى قبل العين دى يا ست الكل ! »

« تسلم لى عينيك ياسى براهيم ... خش من الشمس بقه ! »

أطلت سعدية من خلف زجاج دكانها فى نفس اللحظة التى خفضت فيها هنية رأسها وطغى لون الدم على وجهها ، وانفلتت عائدة نحو المكتبة .

دقت ساعة جامعة القاهرة الخامسة مساء وأنا فى وقفتى عند باب المقهى أنتظر حسن وفى رأسى فراغ كبير ، هنا — أيها السادة — فى هذه اللحظات بالذات ، كان يحدث لى شىء غريب ... كنت أنسى حقيقتى وأمارس لأول مرة منذ الصباح احساسا مباشرا لشىء بعينه ، لم يكن احساسا غامضا أو غير واضح ، بل كان فى قوته ووضوحه كالشمس التى لامست جدران البيوت فى ميلها نحو الغرب ... أحسست بميل شديد نحو هنية ، واستجابة كاملة مخدرة لكل ما يحيط بالتجربة من معالم ، لمحت حسن على البعد يعدو وبين كفيه قطعة الثلج لامعة ، غسلت الكوز وملأته بالمياه ورحت مع حسن نكسر الثلج الى قطع نبدرها فوق زجاجات المثلجات فى الصندوق ، حملت الكوز بمياهه الباردة وقطعة الثلج العائمة فوقها وعبرت الدرب فى خطوات جسوره ، مددت يدى إليها بالكوز وأنا أقول :

« التلج داب يا هنية ! »

« الدنيا حر ياسى براهيم ! »

«ما يمكن بيحب ... حد عارف ؟! »

وامتدت بينى وبينها يد تحمل كوزا صغيرا حجب الوجه عنى ، فخجلت وأنا أخطو الى الوراء ... صافحتنى نظرات سعدية فى حرارة وهى تقول :

« احنا مالناش نصيب ياسى براهيم والا ايه ؟! »

تلعثمت ابتسامتى فوق شفتى وارتبكت ولم أستطع التماسك بحال من الأحوال ، أخذت الكوز من يدها ، وضحكت هنية واهتز جسدها وراحت تتمايل من الضحك حتى سالت المياه على جوانب كوزها ، أحسست بالدماء تلفح وجهى ، والعرق يسيل من خلف أذنىّ ، فعدت الى المقهى وأمرت حسن أن يملأ الكوز بالمياه والثلج ...

وصحا المعلم محمد وفرك عينيه وصاح :

« مين اللى جاب التلج ده ؟! »

انتبهت على صوته فالتفت نحوه فبادرنى قبل أن يصحو تماما من نومه :

« مش كده يا اسطى براهيم ، القهوة على كده مش حاتجيب مصاريفها ! »

« يا براهيم ! »

نداء لم يعطنى الفرصة للرد عليه ، صاح العجلاتى وقد عاد :

« الشاى يابو خليل ! »

قلت : « حاضر » ... وراح المعلم محمد يعد الشاى ، وأخذ حسن يكنس المقهى وبدأت الحياة تدب فى الدرب من جديد ، تعالت صيحات

العيال وزقزقتهم ، وهبت نسمة رطبة من ناحية شارع الخليج ، ونسى المعلم محمد مسألة الثلج ولم يتذكرها الا عندما كركرت عربة الثلج من جديد فى الدرب ، ووقفت العربة أمام المقهى ، فصاح المعلم منبها :

« الصبح بقرش ... وبعد الظهر علشان البيرة والكازوزه حته بقرشين ! »

لم يسأل بائع الثلج بكم نريد ... امسك بقطعة حديد سوداء اللون وراح يدق بها فى لوح شفاف بدا فى تلك اللحظات كأنه ثوب رائع لعروس من عرائس البحر ... كان الرجل يعرف مقدما بكم سيبيع ... لذلك فعندما صحت فيه وأنا أهبط الرصيف الى الشارع : « كسر حتة بتلاته صاغ يا معلم ! » ، عندما قلت ذلك توقفت يده فى الهواء ، ورفع نظره نحوى فبدا وجهه فى ظلال الدرب وكأنه طلى بطبقة شديدة البياض ؛ كانت شعرا غزيرا نابتافى الذقن والشارب والوجنات ولم تخل منه الجبهة العريضة ... دق المعلم محمد من خلفى بالماشة فوق رخامة البنك وقد فقد صبره وأخذ يصيح :

« جرى ايه يا اسطى ... بشلن تلج فى اليوم ؟! »

أطلق بائع الثلج ضحكة اتسع لها فمه فبدا خاليا تماما مظلما تماما الا من لسان شديد الاحمرار لا يبدو منه للناظر سوى طرف مدبب كالحربة ! ... اهتز جسده وطوّح بذراعه فى الهواء وهو يقول طربا بكل صوته ليسمع أهل الدرب :

« أبو النجا ياخد بشلن تلج ؟ ... ميت صلاة النبى ، القيامة

حاتقوم ياولاد ! »

ولم يطق المعلم محمد ، فاحتد وهو يغادر مكانه غاضبا :

« ماتلم لسانك يا راجل يا ... »

ولم يلم الرجل لسانه بطبيعة الحال ، تقهقر الى الخلف فجأة ووضع قطعة الحديد بين فكيه ، وشلح طرف ثوبه المهلهل ، فبان جسده كله من الداخل عاريا ... وتعالت فى الدرب عشرات الضحكات ، وكأن الجدران والابواب والنوافذ قد لفظت كل ناسها فى لحظة واحدة ، واختلطت ضحكات الرجل الغليظة بشقشقة الفتيات اللاتى رحن يدارين وجوههن عن الرجل فى خجل طروب ، وكان بائع الثلج العجوز يرقص وسط الدرب طربا ، بينما نظر المعلم محمد نحوى معاتبا وهو يقول :

« عاجبك كده يا اسطى ! ... لم ايدك بقى شوية أحسن المعلم ممدوح يزعل ! »

ولا أكذبكم القول ـــ أيها السادة ـــ كنت قد نسيت المعلم ممدوح تماما ، ولم أتذكره الا فى تلك اللحظة فقط .

غاب عن ذهنى تماما منذ جئت الى المقهى فى الصباح ... نسيته ونسيت انه يأتى الى المقهى فى السادسة من مساء كل يوم ليبقى حتى آخر الليل ، نسيت أنه صاحب المقهى الحقيقى ، وان الكلمة كلمته ، والأمر أمره ... ثم تذكرت كل هذا فى لمح البصر ، فقلت مواسيا المعلم محمد :

« التلج الزياده على حسابى يا معلم ... متخافش ! »

ثم التفت نحو العجوز الذى كان لا يزال يردد فى الدرب صيحاته ،

ويطلق فى وجوه الناس نكات بذيئة ، وقلت فى حدة :

« ماتلم لسانك يا راجل يا عجوز انت ... هات بتلاته قروش تلج وخلصنا ! »

لم يعبأ العجوز بلهجتى ، فأطلق من أنفه صوتا ساخرا وقبيحا ... وكاد يبدأ من جديد جولة أخرى يرقص فيها ويطلق النكات ، لولا أنه بدا وكأنه تذكر شيئا ، فقد توقف فجأة وبلا مقدمات ، واندفع نحو العربة وراح يكسر قطعة ثلج أكبر من الاولى وهو يدمدم بكلام غير مسموع ... ناولنى الثلج بسرعة وانطلق يعدو بعربته وسط ضحكات أهل الدرب وصيحاتهم خلفه ، وكان آخر ما قيل عنه قبل أن يختفى فى الطرف الآخر من الدرب :

« دلوقت يرجع يسب الملة والدين ويقول التلج ساح منى !! »

قالها المعلم كامل الكتبى وهو يدخل الدرب من ناحية الجامع ، مخاطبا المعلم فتح الله الذى كان قد وصل لتوه مع زوجته ، وكان المعلم كامل يشير الى بركة المياه التى تبقت على أرض الدرب بعد رحيل العربة ... وكان الجميع يطلقون ضحكات عالية مرحة ، كانوا يضحكون ويضحكون حتى اغرورقت عيونهم بالدموع ، والتقت عيناى بعينى هنية ، كانتا باسمتين مشرقتين تفيضان بالابتسام على الوجه كله ، وزاحمنى حسن فى مرح وهو يأخذ عنى قطعة الثلج ويحملها الى الصندوق ويرتب زجاجات البيرة والمثلجات ... أحسست لحظتها انى اعيش فى حلم غريب ، كنت اضحك وقتها من أعماق ، كنت أضحك وأنا أريد أن أضحك ، وكان الناس من حولى يستقبلون تلك الساعة بحفاوة خاصة ، وبدا عندئذ ثوب

المعلم ممدوح النظيف اللامع ، وكان يدخل الدرب — من حيث غادره بائع الثلج — مفتوح الصدر كأنه يستقبل فيه الحياة .

٩ — قبل الغروب بقليل وقع فى تاريخ مقهى أبو النجا حادث غريب .

كان المعلم كامل الكتبى — أغنى أغنياء الدرب وأحد أعيانه ، ان كان للدرب أعيان غيره ! — كان قد اعجب بنشاطى ومثلجاتى الباردة وكوب المياه الذى تدندن فيه قطع الثلج بدلال يسيل له اللعاب .. فسحب مقعدا أمام مكتبته وصفق وطلب مائدة وطاولة لينازل أحد اصدقائه الجالسين معه ، ثم قال بحماس شديد وأنا أضع الطاولة أمامه :

« اللعب على خمسه كازوزه ! »

كان عدد المجتمعين حول المعلم كامل وصديقه ثلاثة أشخاص ... وكانوا جميعا يحملقون فى وجهى باستعلاء فيه مسحة من تواضع ، وفى عيونهم شك تعمدوا أن يظهروه ، وعندما قال المعلم كامل : « حضر لنا خمس قزايز وسقعهم كويس » ... أيقنت أن الأمر فيه امتحان ، وعندما

أضاف مخاطبا اصدقاءه بعد ذلك : « متخافوش ... الميه عند أبو خليل بحتة التلج ، والطلب على ودنه ! » ... تأكدت أن هذا الامتحان سيكون عسيرا ، ولا داعى لاغضاب المعلم أو تقصير رقبته فى الدرب وأمام اصدقائه الذين لابد تعودوا على قضاء الوقت ولعب الطاولة فى مكان أعلى مستوى من مقهى أبو النجا ... وعلى كل — أيها السادة — فقد خفضوا ابصارهم بعد ذلك وراحوا يتابعون الزهر الذى كان يتدحرج فى نقر منتظم ظل يدقدق فى الزقاق منذ تلك اللحظة الى ما بعد منتصف الليل بساعة أو يزيد ...

ولكن المعلم كامل بعد أن خسر الجولة الاولى وشرب كل منهم زجاجة مثلجة ، دفع لى ثمن الزجاجات الخمس مبتسما ، ثم مد يده بقرش وهو يقول بصوت مرتفع ، ورقبته مشرعة فى الهواء كرمح يحمل رأسا :

« مش خساره فيك والنبى يابو خليل ! »

لحظتها— أيها السادة— انتابتنى احاسيس غريبة، امتدت يدى إلى القرش الذى نفحنى به الرجل وكأن شيئا جللا يحدث فى حياتى ، عشرات المشاعر المتضاربة المتناقضة كلها فى آن واحد ، احساس غامر بالسعادة يخالطه احساس غريب بالسخرية والرغبة فى الضحك واعلان الحقيقة على الناس ، احتقار شديد لتلك الرغبة ممتزج — وبقدر مساو — باحترام شديد للقرش نفسه ، دهشة ممزوجة بالمر ... لا ... لالا .. ، لا تطلبوا منى أن أصف لكم ماأحسست به لحظتها ، انه اكبر منى ، اكبر من تعبيرى القاصر ... غير انى أخذت القرش وعدت الى المقهى وقد بدأ اللعب — بحماس أشد مما كان — على خمس زجاجات أخرى ... وقفت أمام المعلم

محمد وفى يدى القرش وأنا انظر اليه ضاحكا ... سألنى عما بى ، فرفعت القرش امام عينيه فارتفعت مع القرش عينا حسن واقترب الصبى منى كقطة جائعة ، رددت النظر بينهما ثم قلت فى طرب واضح :

« المعلم كامل ادانى القرش ده بقشيش ! »

انقض حسن بمخالب يمناه فاختطف القرش من يدى وهو يقول مبهورا :

« ورينى كده ؟! »

راح يحملق فى القرش ويقلبه بين يديه ، بينما كان المعلم محمد يسألنى فى شغف وغير تصديق :

« بتتكلم جد ... اداللك قرش بقشيش بصحيح والا بتهزر ؟! »

وامتدت يد حسن تحمل القرش الىّ من جديد ، فقلت له باسما :

« القرش ده علشانك يا حسن ! »

فارتدت يده فى لمح البصر وقبل أن اكمل جملتى تقبض على القرش من جديد وتضمه الى صدره فى حرارة ووجهه يطق بشرر ضاحك ... وقال لى المعلم محمد :

« وأنا يعنى بلاش والا ايه ؟! »

كان يحدثنى وعيناه الغريبتان تنهشان قبضة حسن التى تضم القرش ، فابتلع حسن ضحكته الكبيرة ومادت السعادة من وجهه ولفظت عيناه تلك النظرات الحادة الحائرة ... فقلت على الفور وأنا اقف بينهما :

« انت مره وهو مره يا معلم محمد .. المره الجايه لك ! »

وعادت الى حسن ضحكته الكبيرة ...

وكان هذا ــ أيها السادة ــ هو الحادث الغريب الذى وقع فى مقهى أبو النجا قبل الغروب بقليل ...

فسرعان ما غادر المعلم محمد مكانه خلف النصبة فى حماس وضجيج وهو يزعق فى تارة وفى حسن تارة أخرى ، منظما الجو حول شلة المعلم كامل ، مرتبا المقاعد صائحا بين الحين والحين :

« تعالى يا واد يا حسن اكنس الارض حوالين عمك كامل .. تعالى يا براهيم رش هنا ميه تجيب طراوه لعمك كامل ... فيه كازوزه كفايه فى الصندوق ؟ ... سقعها تمام قوى للمعلم كامل ... و ... »

ولست فى حاجة ــأيها السادةــ لأن أوضّح لكم سبب هذا الاهتمام المفاجىء بالمعلم كامل وتوفير أسباب الراحة له والرفاهية ... لست فى حاجة لأن أوضح لكم سبب كل هذه الزيطة التى صنعها المعلم محمد معلنا فى الدرب أن شيئا خطيرا وهاما قد حدث ... غير انى فى حاجة لان اقول لكم أن هذا الاهتمام لفت نظر الجميع ، وكان أول من لاحظ الأمر هو المعلم ممدوح بطبيعة الحال ، فقد نهض من مكانه على الرصيف الآخر حيث جلس منذ جاء ، وعبر الدرب الينا واقترب من المعلم محمد وهو يجول ببصره فى كل ما حوله ثم همس من بين شفتيه :

« ايه الحكاية دى ؟! »

وبادله شقيقه الهمس وهو يتحرك هنا وهناك وعلى وجهه ابتسامة سجنتها ملامح لا تريد أن تعبر عن الحقيقة :

« براهيم استفتح ... عم كامل إدا له قرش ! »

وسرى الاهتمام إلى ممدوح على الفور ، أخذ منى الخرطوم وراح يرش الأرض بعد أن طلب منى الاهتمام بالمشاريب وتسقيع الكازوزة كما يجب ... راح الشقيقان يصنعان من الجلبه ما هيأ الجو تماما حول شلة المعلم كامل ولفت اليهم كل الانظار ... وكان لابد وأن يتساءل أهل الزقاق وأن يتقصوا سر هذا الاهتمام المفاجىء ... وقد علم أهل الدرب بكل ما حدث ــ ولا ادرى كيف ــ غير أن أول من عرف كان المعلم فتح الله ... فمنذ أن بدا هذا الاهتمام وهو يتململ فى مقعده ولا يستقر على حال ، نهض وراح وجاء ودخل المكتبة وعاد منها حتى وصله الخبر فاستدعى صديقا ــ لست ادرى كيف ــ وسحب كرسيا وطلب الطاولة وجمع صديقين آخرين ولعب على أربع زجاجات .

لم تمض دقائق حتى كانت المباراة الحقيقية بين صوت المعلم فتح الله وصياح المعلم كامل وتهليل الشلتين والصراخ للعبة الخاسرة والكاسبة على حد سواء !!

كان هذا الذى يحدث فى تلك الساعة من اليوم فى درب الجماميز شيئا غريبا ، وكان لابد للناس من أن يلحظوا وأن يسألوا أيضا ... وكان لابد للجميع من أن يعرفوا أن مقهى أبو النجا يبيع الكازوزه مثلجة ، وكان لابد للبعض من أن يغامر ويجرب ، وكان لابد للبعض الآخر من أن يسأل وأن يتأكد ، ثم لابد له أن يطلب !!

وانبدر الدرب بالفتيات الصغيرات وقد جئن ليشترين زجاجتين أو

ثلاثا ... ووصلت الطلبات الى أربع زجاجات ولا يهم الصنف ، كل ما يهمهن : « بس يكونوا ساقعين قوى! » ... بهت المعلم محمد عندما طلبت صندوقا آخر وثلجا آخر فهرول يأتينى بالصندوق وجرى حسن ليشترى مزيدا من الثلج ... انتابتنى نشوة عارمة ولم أعد اكف عن الحركة واستقبال نظرات هنية والرد عليها بأحسن منها ، زاط الزقاق وامتلأ بالاطفال وعلا الضجيج وتردد اسمى على كل لسان ، فالذى يعطش يطلب ماء باردا مرة ، وربما مرتين ، لكنه فى المرة الثالثة لابد أن يستحى وأن يطلب طلبا ويدفع قرشا ... علم التماثلجية بأمر الكازوزة فأرسلوا يطلبون لكل منهم واحدة ... وامتدت يد الاسطى رمضان الى أحدى الزجاجات والتفت أصابعه حولها ثم قال بدهشة :

«ايه الحكاية يابو خليل ، انت مش حاتخلينا نسهر الليلة بره الدرب والا ايه ؟! »

قلت ويدى تعمل فى سدادات الزجاجات الباقية بسرعة وهمة :

« ياألف مرحب ، ايها خدمه يا اسطوات ، تآنسوا وتشرفوا ! »

ورفع الىّ الاسطى عبد السلام رأسة وتحسس زجاجته ثم قال :

« ماشى كلامك يا براهيم .. الليلة حانسهر عندك ! »

وصاح الاسطى فاروق بنبرة مرحة :

« بس سقع لنا كام قزازة بيره كده على مزاجك يعنى ... وروّق لنا مدخل العطفة وخلى الوله حسن يرشه ! »

عدت الى الدرب فاستقبلنى المعلم فتح الله ، وكان يصفق بكل كفيه فى فرقعة مدوية وهو يصيح لاويا رقبته التى انتفخت ناحية المعلم كامل :

« الكازوزه الساقعه يا براهيم ... يا براهيم ... هو أنا لاقى لعيبه يا خلق !! »

وكان الاصدقاء من حوله يرددون بين الصيحة والصيحة :

« العب التانيه ... العب غيرها ! »

كان واضحا أن المعلم فتح الله قد كسب الجولة ، وأنه لا يريد أن يرد على اصدقائه ، وأنه كان سعيدا الى حد يفوق الوصف ، وأكثر ما كان يسعده فى تلك اللحظات بلاشك أنه كسب وأن المعلم كامل يسمع النبأ ...

ابتسمت هنية وأنا أجهز الزجاجات لأبيها ، وأومأت بعينيها كأنها تقول شيئا ... كان أبوها واصحابه يجلسون بمقاعدهم على أرض الدرب بينهم وبينها عرض الرصيف ، وبالرغم من ذلك حملت الزجاجات اليها ، ووضعتها أمامها ، والتهمت عينيها ورحت أهمس وأنا افتح الزجاجات فى فرقعات كانت تدوى فى الدرب كله :

« وآخرتها يعنى ! »

« آخرتها معاك انت ... حد يسمعنا ! »

قالتها فى غضب مغموس فى فرح غامر ، واستدارت ناهضة وهى تحمل احدى الزجاجات الى حيث يجلس أبوها ، فرت منى فى خفة تدعونى لمطاردتها من جديد ، حملتها بقية الزجاجات الى الرجال ، وعدت الى المقهى وأنا أرمق بجانب عينى ابتسامتها المتبادلة مع سعدية وعودتها الى مكانها عند باب المكتبة ... انهلت على الثلج تكسيرا وملأت به أربعة اكواب حملتها من جديد إلى حيث كانت هنية ، كنت فى تلك اللحظات

أشعر وكأن دمائى تغلى فى عروق ، وكان انقضاضى عليها سريعا ومفاجئا ، رأتنى أفتت الثلج وأضعه فى الاكواب لكنها أبدا لم تظن انى عائد به اليها ... ارتجفت وامتلأ وجهها بالدماء وتشاغلت أمها بطفلها الرضيع تلاغيه حتى لا تلحظ ولا تسمع ، تبلبلت عينا هنية وتهدج صدرها وأنا أقول بصوت حازم خفيض :

« بالذمة يعنى مش حرام العمايل دى ؟! »

ردت مرتجفة وبصوت هامس لا يكاد يبين :

« أبويا ياسى براهيم ... أبويا يسمعك ! »

كنت آخذ الزجاجات من أمام الرجال لأعود بها الى حيث الاكواب فأملؤها على مهل ودون أن أضيع من الوقت ثانية واحدة ...

« أنا اتعذبت كتير ... »

« اسم الله ... من الصبح لقبل العشاء بساعة ؟! »

« تصدق وتؤمنى بالله ... زى ما أكون أعرفك طول العمر ! »

« أبويا يا ابراهيم ... أبويا يسمعك »

رفعت الألقاب وزال الحجاب ، وبقيت فى يدى زجاجة واحدة ...

« وماله لما يسمع ... هو أنا طالب شىء حرام ... أنا بأحب ! »

وامتلأت الكوب وفرغت الزجاجة وافتر فم هنية عن ابتسامة سحبت الدماء من الوجه الى الشفتين ، ورقصت العينان طربا ، واستدرت عائدا الى المقهى بنشوة من كسب معركة عمره .. كنت سعيدا فرحا أكاد أرقص على

أرض الدرب الذى تحول الى مولد يملأه الحديث والصياح والكلام والاغانى التى راحت تلعلع من الراديو لتسمع الجيران وجيران الجيران ... غير أنى ما كدت أخطو خطوة فى طريق عودتى حتى تسمرت قدماى فى الأرض وأنا أحملق فى مدخل المقهى ، حيث كان صديقى الدكتور سمير يقف بقامته المديدة الفارهة ، ينظر الىّ ويبتسم !!

١٠ — كان صديقى الدكتور سمير — أيها السادة — يضحك ، أو بمعنى أكثر دقة ، كان يبتسم ابتسامة كبيرة تملأ وجهه وهو واقف بباب المقهى وبيده مقعد خال لست أدرى من أين جاء به ... كان فى وقفته هذه كمن يريد أن يعلن للناس جميعا أنه يعرف شيئا لا يعرفونه ، وأنه يحمل فى صدره سرا مهولا ، وأن هذا الجرسون ليس جرسونا ، بل هو صحفى اسمه فلان الفلانى بالمجلة الفلانية ، وأنه يقوم الآن فى غفلة عنهم بتجربة ستحدث دويا كالقنبلة اذا ما سقطت وسطهم يوم يعرفون الحقيقة التى يعرفها هو الآن ، وحده ، دونهم !!

كان سمير سعيدا وأنا أقترب منه حاملا المائدة النحاسية الصغيرة لأنقلها الى جواره ، ثم أنهال عليها تنظيفا بنشاط مبالغ فيه وأنا أهمس بصوت واضح النبرات :

« اتفضل يابيه ، أيها خدمه ! »

ازدادت ابتسامته اتساعا وهو يجلس على المقعد واضعا ساقا فوق ساق ، قائلا من أطراف أنفه بأسلوب مبالغ فيه :

« عندكم كوكا كولا ؟! »

وصديقى سمير — أيها السادة — كان يعلم أن قهوة أبو النجا لا تبيع الكوكاكولا ، عرف هذا بالأمس ونحن جالسان مع المعلم محمد ... فقد طلب بعد الشاى زجاجة فقال له هذا :

« والله احنا مانجيبهاش ، فيه عندنا بسكال واسباتس اذا حبيت ! »

حدث هذا بالأمس فقط ، وهو لابد يذكره فصديقى سمير لا ينسى أبدا تفاصيل الساعات المثيرة ... فما الذى كان يريده من سؤاله هذا ؟ ... قلت له بصوت مرتفع وأنا أكتم فى صدرى بركان الغيظ الذى انفجر فى داخلى فجأة :

« لا والله يابيه ، عندنا بسكال واسباتس بس ! »

لوى سمير شفته السفلى فى تمثيل ردىء مبالغ فيه ، فلو أن طفلا رآه وانتبه له فى هذه اللحظة لعلم على الفور أنه يتصنع كل هذا وأنه يريد شيئا آخر لا يُشرب ... المهم انه طلب زجاجة وضعها أمامه وراح يمتص ما فيها على مهل وهو يحدجنى بنظراته تارة ، ويجيل البصر فى الجالسين فى الدرب طورا آخر .

وكنت أتحاشى الاقتراب منه ، لا لخوف — أيها السادة — فلم أكن خائفا بل كنت قبل مجىء سمير أحس وكأنى أعيش فى بيتى ومع أهلى ... بل لأنى كنت موقنا أنه لابد وأن يجاذبنى أطراف الحديث استظرافا من ناحية ، وتوقيعا ببصمته على التجربة من ناحية أخرى ... هو يريد أن يحكى شيئا

بعد انتهاء التجربة وفرقعتها فى المجلة ... يريد أن يحكيه فى استخفاف قائلا أنه كان هناك وأنه قال كذا وفعل كيت وأن ...

وقد بدا على وجه المعلم ممدوح ظل ابتسامة سرعان ما ابتلعها وان طفا زبدها على الشفتين بين الحين والحين كالموجة الهادئة ... اما المعلم محمد فقد وجدها فرصة وصاح ثلاث مرات متعاقبات وبصوت مرتفع يسمعه كل من فى الدرب :

« تخلى بالك من البيه هنا يا ابراهيم ... تخلى بالك قوى ! »

كان يريد هو الآخر أن يثبت لسمير أنه موجود فى اللعبه ... وأنه يفهم خباياها وأسرارها ...

لكن الناس فى الدرب تهامسوا فيما بينهم حول هذا الغريب الذى جاء ، سألنى المعلم كامل عن : « الأفندى ده ! » ، فقلت له انى لا أعرفة ، وسرعان مانسى الرجل الموضوع — كما فعل جميع الناس بعد دقائق — وانهمك من جديد فى لعب الطاولة الذى وصل فى تلك الساعة الى ذروة حدته ... وانشغل أهل الدرب فى أحاديث كل يوم ، كما انشغل الطلبة الذين تجمعوا أمام مكتبة عمران فى تسلق الجدران بعيونهم ، والمناقشة التى كانت تحمى وتمتد وتصل الى درجة الصراخ دون أن يسمعهم أحد ... وبانت فى الجو سحابات شجار سينشب بين العجلاتى والحلوانية ، فقد صاحت الحلوانية فجأة بكل صوتها وهى تحلمق فى دكان العجلاتى المقابل لدكانها تماما ، وهى لا تحدث أحدا بالذات :

« مش كل واحد يختشى ويتلم والا ايه ؟! »

قالتها وسط زيطة العيال والكبار ونداء بائع الدندرمه وصراخ صفارته المشروخة وأحاديث الطلبة عن الفرق بين سارتر وكامى ... فلم يسمعها كل الناس ، أو سمعوها جميعا والتفت البعض منهم نحوها للحظة ، لكن العجلاتى كان قد نهض ودلف الى محله واختفى فيه ، وعادت الحلوانية الى دكانها الصغير ، وتلخلخت الضجه بريح صمت خفيفة ، ثم عاد كل شىء الى حاله .

انهالت الطلبات حتى أصبح من المستحيل على أن ألاحقها فخرج حسن من مكمنه أمام الحوض وراح يساعدنى فى شغف وعيناه تنفثان بريقا أخّاذا ... كان سعيدا كل السعادة ... يمنحنى بين الحين والحين نظرة امتنان وشكر ... اقترب منى والظلام يطبق برفق على الدرب ، وشب على اطراف أصابعه ثم همس :

« أسطى براهيم ... يا اسطى براهيم ! »

انحنيت عليه وأنا أحيط كتفه بذراعى وأسأله عما يريد .

كنت أبتسم لحظتها فى سعادة ... فكل شىء كان يبدو لى فى تلك اللحظات رقيقا كنسمات الهواء التى راحت تهب من عطفة النيدى ... ولابد أن تلك الرقة وذلك الاحساس العميق بالسعادة قد سريا الى حسن ، فقد رفع ذراعه وأحاط به كتفى ، وشب على أطراف أصابعه وهو يضع شفتيه فى أذنى قائلا :

« انت حاتقعد معانا بقية الجمعة يا براهيم ... مش كده ؟

... لزى النهارده يعنى ... لزى النهارده ! »

فى صوته رجاء لا تخطئه أشد الآذان صمما ، وفى لفة ذراعه حول كتفى ود واعتذار ، نظرت الى حسن ولم أجد ما أقوله ، رحت أربت على كتفه وأنا أتمتم بكلمات كانت تتساقط من بين شفتى فى غير قصد ولا ترتيب ، صفق أحدهم فانفلت حسن مسرعا يلبى النداء ، فتنفست الصعداء وأنا أنظر الى سمير بجانب عينى ... لحظتها تحول شعورى وانتابنى انقباض شديد ، واختناق كان يدفع بالدمع الى عينى دون سبب أو مبرر .

منذ أن رأيت سمير أمامى وملايين المشاعر والاحاسيس والانفعالات تضطرم فى صدرى وتفور وتغلى غلياناً ... لست أدرى ما الذى ألم بى ولست أعرف له تفسيرا حتى الآن . كل ما أعرفه انى وجدت نفسى أهرب من نظرات هنية وأبتعد عنها فرارا ، حدث هذا دون مقدمات كأنه القضاء يحم بلا مفر ، وراحت هنية تتبعنى بنظراتها فى فزع خبيىء يعلن للناس عن نفسه ... ونادانى سمير طالبا زجاجة أخرى ، ثم همس وأنا أضعها أمامه :

« انت علّقت البت دى والا ايه ؟! »

ابتسمت ولم أبتسم، أجبت ولم أجب، فى لحظة واحدة انشطرتُ الى شطرين ، وتمزق قلبى تمزقا أوجعنى ، ونادى المعلم فتح الله مصفقا :

« يا براهيم ... »

هرولت اليه هاربا.

« ايها خدمه يا معلم ... »

حملق الرجل فى وجهى على ضوء المصباح الخابى أمام مكتبته سائلا :

« مالك يا براهيم ... انت عيان ؟! »

أربكنى سؤال الرجل فتساقطت الكلمات من بين شفتى بلا ترتيب ، قلت : أبدا ، وقلت : نعم ، انى متعب ، وقلت أيضا : « مفيش حاجه !! » ... لم أعرف ان كان المعلم فتح الله هو الكاسب أم الخاسر فى تلك الجولة فقد كانت عيناى تتخبطان فى الحيطان والأرض والوجوه والمقاعد والاقدام كالطائر الجريح دون أن أجرؤ على مواجهة هنية ونظراتها ... كانت تلاحقنى فى اصرار وكنت أشعر بذلك شعورا مباشرا وحارا وكأنى أقف وراء عينيها .. وعاد الرجل يلح :

« ايه يا براهيم مالك ... اذا كنت تعبان قول ! »

حرارة الرجل جعلتنى أتمالك ...

« ده شوية مغص ويزول يا معلم ... »

« اشرب لك كباية ينسون سخنه وانت تروق ... يا محمد ... يابو النجا ! »

كان صوت الرجل يعلو ويعلو حتى أصبح صياحا يسمعه الدرب كله وهو ينادى على المعلم الذى خرج من وراء النصبة متسائلا :

« ايه مالك يا فتح الله ؟! »

« واحد ينسون على حسابى للاسطى براهيم ! »

وقبل أن يفتح المعلم محمد شفتيه كان المعلم فتح الله يردد بنفس الصياح :

«بس توضبه علشان المغص اللى عنده يروح... وإذا كان......»

مادت الدنيا تحت قدمى وأنا أرى سمير ينهض مسرعا من مكانه وقد كست وجهه علامات الجد الشديد ... فعدت مهرولا نحو المقهى فقابلنى فى منتصف الطريق :

« مالك ... الشنطة معايا فى العربية ! »

قالها بصوت هامس لم يسمعه أحد ... لكنه كان يقف قبالتى فى منتصف الدرب تماما ويكاد وجهه أن يلاصق وجهى وكل العيون ترمقنا !!

انتابنى الذعر فأنا أعرف صديقى الدكتور سمير — أيها السادة — أعرفه جيدا ... انه من النوع الخدوم الطيب الذى لا يرفض طلبا لصديق ، ولا يطلب مقابلا لخدماته ، سمير — أيها السادة — قد يعالج صديقا له بالأسابيع ، ويعوده فى اليوم الواحد مرات ومرات ، ويسأل عنه فى التليفون كل ساعة ... اعرف صديقى سمير — أيها السادة — جيدا ، أعرف مقدار السعادة التى تجتاحه يوم يصيب أحدهم مرضا يصبح عليه أن يشفيه منه ، هو من ذلك النوع الذى تبلغ قمة سعادته ذروتها يوم يخدم الآخرين ... لذلك اشتد ذعرى وهو يعترض طريقى فى منتصف الدرب ، واشتد أكثر والتعليقات بدأت تترى من الجالسين حول المغص وأعراضه وآلامه وطرق شفائه ، ثم ، وأنا أرى هنية تغادر مكانها مسرعة وتسير فى الدرب على عجل ... فيخرج صوتى من بين أسنانى فى غيظ مكتوم :

« فى عرضك ... فى عرضك روّح انت أنا كويس !! »

ثم قلت فى صوت عال وأنا أرفع يدى بالتحية :

« متشكرين قوى يابيه ، دى حكاية بسيطة ... الحساب أربعة

ونص ! »

وعلى الفور مددت له يدى اليمنى ، ووضعت اليسرى فى جيبى ورحت أعبث بأصابعى فى القروش العديدة التى كانت تملؤه ... وارتبك سمير ، فمن ميزاته — أيها السادة — أنه بالرغم من جسارته واقدامه يصاب بالخجل لأصغر المواقف وأكثرها بساطة ، وضع سمير يده فى جيبه مغتاظا وبلا وعى بعد أن أيقن أن لا مجال لبقائه أكثر من هذا ... أخرج بضعة قروش وهو يقول فى غيظ لم يحاول أن يخفيه :

« عايز كام ؟! »

كان قد سمع الرقم ، لكننى قلته له مرة أخرى ... مد لى أصابعه بخمسة قروش ونظر فى وجهى ولمعت عيناه ولاحت على وجهه ابتسامة تشف وانتقام وهو يقول هامسا :

« خلى التعريفه علشانك ، ما تستحقش غيره ! »

ثم ابتسم ومضى ... وقال المعلم محمد وأنا أعطيه التعريفه :

« يبقى الدور الجاى لى كان ... أشمعنى أنا تعريفه يعنى ؟! »

أحسست كأن حملا ينزاح من فوق صدرى عندما اختفى سمير من الدرب ... زايلنى على الفور ذلك الاحساس العنيف بالتوتر وأن كان قد ترك فوق صفحة نفسى بصماته الداكنه ... دق قلبى وارتجف وأنا أرى هنية تعود من طرف الدرب مسرعة ، ولم يكن دق قلبى كالدق الذى أعتدته منه كلما خفق لشىء أو لحب ، ولم يكن ارتجافه كذلك الارتجاف الذى تعودت عليه من قبل ... كان هناك شىء غريب حزين يميز الدقات هذه المرة ، وعندما كانت تقترب منى وتتجه نحوى على مرأى من الجميع ، انتابتنى

رغبة دافقة فى ضمها الى صدرى ... و ... وتقبيلها أيضا ، لكنى أردت ذلك باحساس الواعى الذى يحول دون اكتمال نشوته كدر يعكر صفوه ... وكاد قلبى أن ينفجر بالسعادة حقا وهى تمد لى يدا تقبض أصابعها على ورقة صغيرة :

« خد سف شوية الكمون دول والمغص يروح منك ياسى براهيم ! »

الحنان يتدفق من عينيها ويفيض على أرض الدرب ويرتفع فيضانه ليغرقنى فى سحاباته الناعمة ، جف حلقى وارتجف صوتى وأنا أقول بلا وعى :

« عايز أشوفك يا هنية ! »

« ما انت شايفنى أهه ... سلامة الشوف ! »

ابتسمَتْ وابتسمت وأنا آخذ منها ورقة الكمون ...

« لازم أشوفك يا هنية ! »

« بعد صلاة العشا حاروح أجيب العشا لأبويا من البيت »

حدث هذا فى الدرب علنا وأمام جميع الناس ، حدث دون قصد منى أو ترتيب فلم أفكر ولم أكن أحلم بأن من الممكن مقابلة هنية فى تلك الليلة بالذات ، تبادلت معها الحديث بصوت خافت لم يسمعه أحد حقا ، لكننا كنا نتحدث ونقول شيئا على أى حال ... بجانب عينى رأيت الأم تنظر نحونا وفى عينيها اشراق يضىء ما حولها بالسعادة ، وكان الأب متشاغلا باللعب ، كأنه لا يرى ، أو كأنه يرى ويبارك ... لم يطل بنا الأمر فقد عادت هنيه الى المكتبه ، وعدت أنا الى المقهى وفى يدى الكمون

والمعلم محمد يقدم لى الينسون ... كنت لحظتها كمن يحلم تماما .

مط المعلم محمد رقبته من خلف البنك الكبيير وعيناه تطقان بالاستطلاع وتبدوان جاحظتين فى شره غريب وهو يتساءل :

« ايه اللى أخذته من هنية ده ؟! »

قلت بصوت هادىء وكأنى أقرر أمرا لا غرابة فيه :

« ده كمون علشان المغص ! »

« آه ... الكمون كويس ... بت حنينه ومتربيه هنية دى ! »

سففت الكمون وشربت الينسون ورحت أتحرك كالنائم ، استندت فى لحظة الى باب المقهى ، ورحت أرقب كل ما حولى وأمامى وكأنه حلم ... كان الظلام قد حل وأضيئت مصابيح الدكاكين كلها واتسعت دائرة الطلبة أمام مكتبة عمران ، علا صوتهم وهم يناقشون احدى القصص فى حماس لم يمنع عيونهم ولم ينسها تسلق الجدران والتعلق بالنوافذ والشرفات .

ألقت الحلوانية بجملة أخرى الى عرض الطريق فى منتصف المسافة ما بينها وبين العجلاتى ، فنهض هذا الى الداخل بعد أن كان قد عاد الى مكانه بجوار الباب وطلب شايا وجوزه وراح يدخن ويرتشف ... لحظتها — لحظة صياح الحلوانية بجملتها الأخيرة — امتد انتباه الناس لثوان تزيد عن المرة الاولى قليلا ، فقد ألقت الحلوانية خلف جملتها الاولى بجملة أخرى ، غير أنها لزمت الصمت بعد ذلك ، فعاد الناس الى حديثهم فزاطوا ونسيوا كل شىء عن هذا الموضوع ، لكن المعلم محمد همس موجها حديثه لى :

« الراجل ده ديله نجس ، متجوز ومخلف وولاده مخلفين ، وبرضه عينه

زايغه يمين وشمال ... »

ولم أرد على المعلم محمد فلم يكن يعنينى فى تلك اللحظات سوى استمرار حديثى مع هنية وملاغاتى لها بالعين واليد والشفتين اللتين راحتا تهمسان خفية عن الناس بكلمات الغزل والحب ... لحظ الرجل انصرافى عنه فدق بالماشة فوق الرخامة دقات عاليه وهو يميل نحوى أكثر :

« دى وليه مترمله ... جوزها مات من سنتين وواقفه هى فى الدكان تاكل لها لقمة عيش ، ماله هو وماله ؟ ... ما يسيب الناس فى حالها ؟! »

فى تلك اللحظة عاد العجلاتى الى كرسيه الكامن بجوار باب دكانه على الرصيف ، كانت الجوزة لا تزال فى يده وكان هو لايزال ينفث منها الدخان فى حلقات متتابعة ، جلس الرجل فى هدوء ووضع ساقا فوق ساق وراح يجيل عينيه فى الدرب وكأن شيئا لم يحدث .

وكاد المعلم محمد أن يسترسل فى حديثه الهامس ، لولا أن هل علينا الاسطى رمضان من بعيد وهو يصيح :

« يابو خليل ... يا براهيم ! »

« آيوه يا أسطى رمضان ... أيها خدمة ! »

« حضّرت لنا القعدة ؟! »

« هوا ! ... كله جاهز يا أسطى ! »

« سقعت القزايز ؟! »

« تلج وحياة النبى ! »

« طيب احنا بنشطب وجايين لك بعد عشر دقائق ، حانتشطف بس ! »

استدار رمضان عائدا ونهض المعلم ممدوح صائحا وهو يغادر مكانه جامعا طرف ثوبه النظيف فى كفة الأيمن :

« مرحب يا اسطى رمضان ... مسا الخير ! »

التفت اليه رمضان ، وتبادل الرجلان التحية ، ونشط المعلم محمد والمعلم ممدوح ورحت أصيح أنا فى حسن :

« المقشه ياااد ونضف مدخل العطفة ورشه بالميه ! »

تساءل المعلم كامل وهو مستمر فى لعبه دون أن يرفع عينيه عن الطاولة :

« هم التماثيلجية حايسهروا هنا الليلة ولا ايه يا براهيم ؟! »

رددت عليه بالايجاب وأنا أسرع بحمل مزيد من زجاجات البيرة الى الصندوق ، رحت أساعد حسن فى توضيب المكان وتهيئته ورص الكراسى وتحضير الاكواب ، اشتدت الجلبة فى الدرب والتفتت كل العيون وتطلع الناس الى ما يجرى أمامهم فى صمت ولم يعودوا الى ما كانوا فيه الا بعد أن جاء التماثيلجية واستقروا فى أماكنهم ، فبعد دقائق كان التماثيلجية يتمايلون بأجساد نافرة العضلات ويسيرون فى تؤدة من يعرف قدر نفسه ويقدرها ، ناظرين أمامهم نحو مكانهم ، لا الى اليمين ، ولا الى اليسار ، يلقون التحية على كل من فى الدرب بأدب ، ثم يصل موكبهم الى حيث كانت المقاعد قد رصت حول صندوق فارغ للبيرة حل محل المائدة ، فوق الصندوق كانت تتربع زجاجتان مزينتان بسحابات ضبابية أضفت عليهما جمالا

أخاذا ... امتدت يد رمضان الى الزجاجتين ، وارتسمت على وجهه ابتسامة ... وقبل أن يفرغ أحدهم قطرة واحدة فى كوبة ، كان صوت الحلوانية يعلو للمرة الثالثة ... لكنه هذه المرة كان يختلف فى نبرته وصوته ... ولم يكن الصياح وحده هو سلاح المعركه ... فقد كانت الحلوانية تندفع فى جنون لتعبر الدرب وتنشب أظافرها فى عنق الرجل .

★ ★ ★

« والنبى لافرج عليك اللى يسوى واللى ما يسواش ! »

« دى وليه مجنونه ... مجنونه ! »

« يا راجل يا شايب يا عايب ... هو أنا حتة لحمة مرمية فى الدرب للكلاب اللى زيك ؟! »

« انتى وليه مجنونه ... مجنونه ! »

« ياخى اختشى على دمك وشيبتك ، دانت مخلف أكبر منى ! »

« وليه مجنونه ... مجنونه ! »

« والنبى لافرج عليك اللى يسوى واللى ما يسواش ! »

« مجنونه ... وليه مجنونه ! »

« كل يوم أقول يابت أخزى الشيطان ... ويمكن يعقل ... »

« اتجننت ... الوليه اتجننت .. مجنونه ! »

« انت فاكر الحكاية سايبه ... دانا راجل زيى زيك ! »

« مظبوط كده ... مجنونه ... مجنونه ! »

★ ★ ★

انفض الشجار وانتهى منذ ساعة وعاد الناس الى ما كانوا فيه مرة أخرى ، كان وجه العجلاتى قد سال منه الدم وأظافر الحلوانية تنهشه وتصنع فى صفحته طرقا متعرجة حمراء اللون ، وكان الناس قد عادوا الى ما كانوا فيه بعد أن زاطوا وهاصوا وتجمعوا حول الحلوانية التى أخذت بخناق العجلاتى وراحت تكيل له مع الشتائم والسباب ضربات مبرحة لا رحمة فيها ولا هوادة ... قصت على الناس قصة الرجل الذى لم يكف عن مغازلتها منذ مات زوجها ... و ... وكان العجلاتى قد انهزم فى المعركة شر هزيمة ، وعاد الى مكانه وعادت الحلوانية الى مكانها وعاد الناس الى ما كانوا فيه ، بعضهم يضحك وبعضهم يعلّق وبعضهم يقول أن العجلاتى يستأهل أكثر مما أخذ ... انفضت المعركة بالأيدى لكنها استمرت بالألسن ... عادت الحلوانية تقص على الجميع قصتها مع الرجل الذى خلع كل أسنانه وبصوت سمعه كل من فى الدرب ، ثم راحت تبدى رأيها ، وتعلق على حادثه وتسبه بين الحين والحين ، وهو جالس فى مكانه لا يتحرك منه ولا ينطق سوى جملة واحدة كان يرددها بمناسبة وبدون مناسبة : « مجنونه ... وليه مجنونه » ... مرت ساعة ودخل الدرب شاب فى الثلاثين أو يزيد قليلا ، ماأن رآه المعلم محمد حتى همس : « أهو ده ابن العجلاتى ! » ... ولم تمض ثوان حتى أخذ الولد أباه وغادرا الدرب بعد أن أغلقا الدكان .

حدث كل هذا ـــ أيها السادة ـــ فى زمن وجيز ، نشب الشجار واحتدم وسأل الدم وتدخل الناس وقصت الحلوانية قصتها أكثر من مرة ثم انفض الشجار وعاد الناس الى أماكنهم وراحوا يستمعون الى صياح الحلوانية وحديثها الثائر وهى تحكى للا أحد وتقص على كل الناس ما حدث .

فى البداية ــ أيها السادة ــ هممت بالاشتراك فى تخليص الخناقة وفض الشجار لولا المعلم محمد الذى لحقنى فى منتصف الطريق وجذبنى من يدى صائحا :

« مالك انت ومال الناس دول ... حاتوسخ نفسك ؟ ! »

ثم ألقى بنفسه على الفور فى خضم الزحام مشتركا مع الجيع فى التخليص حينا والتعليق حينا آخر .

فى البداية ــ أيها السادة ــ هممت باللحاق بالمعلم محمد رغم تحذيره لى ، ثم عدلت عن ذلك نهائيا عندما رأيت المعلم فتح الله يغادر مع صحابه مكانهم ليذوبوا جميعا فى كرة الناس الملتمه حول الحلوانية والعجلاتى ... ولحقت به زوجته ... كان قميص العجلاتى قد تمزق وتعرى صدره وكان دمه قد سال فاشتد تجمع الناس لتخليصه من الحلوانية ... كنت أقف بباب المقهى عين على اللمة وعين عند هنية التى ظلت فى البداية مكانها أمام المكتبة ، لكنها سرعان ما نهضت وتحركت ببطء فتحركت بدورى ... عيوننا على الناس ، وأقدامنا تسعى نحو بعضنا البعض وكأننا نسبح فى الهواء .

فى ثوان ــ أيها السادة ــ كنت قد أصبحت أقف أمامها وجها لوجه ، وكانت هى تبتسم فى خجل ، وكنت أنا أبتسم فى جسارة وكل منا يقترب من الآخر ومن الناس حتى التصقنا بالناس وببعضنا البعض فى نفس الوقت ... وسط الزحام والحركة وانشغال الجميع امتدت يدى لتأخذ يد هنية فى أحضانها ، وامتدت يد هنية لتذوب فى كفى ذوبانا ... وكلانا يشرئب بعنقه وكأنه يتابع ما يجرى وسط اللمه !

كيف حدث كل هذا الذى حدث ؟ ... كيف ؟

لا أدرى ...

كنت أشعر وكأنى أعيش فى عالم عشته من قبل ، كأنى رأيت هنية والمعلم محمد والمعلم فتح الله وممدوح والمعلم كامل الكتبى ورأيت الخناقة التى تحدث بين الحلوانية والعجلاتى ... احساس غريب كاحساس الطفل الذى غاب كثيرا عن بيته ... أيقظنى سمير من الحلم للحظات عكرت صفو احساسى وأوقعتنى فى حيرة سرعان ما تلاشت وذابت وانمحت عندما كانت أصابعى تضغط كف هنية ، وذراعى تسرى اليه سخونة ذراعها الذى التصق بى ...

وقد تركت يد هنية عندما بدأ الناس ينفضون وعندما كان كل واحد يعود الى مكانه ، عدت الى المقهى وعادت هنية الى المكتبة ، لكن احساسى هذا لم يزايلنى طوال الدقائق التى مضت حتى أذن المؤذن لصلاة العشاء ولعلع صوته من فوق مئذنة الجامع فنهضت هنية لتحضر طعام العشاء لأبويها .

ولم أكن لأغفل عن هنية فى لحظة كتلك اللحظة ، فمنذ أن قالت ما قالت وأنا كالملهوف أبحث عنها خوفا من اختفائها وضياع الفرصة بالرغم من يقينى بأنها لم تكن لتنهض فى غفلة عنى ... لقد مهدت هنية لانصرافها طويلا ، فنهضت وراحت وجاءت وتحدثت مع أمها وسألت أباها وأطالت النظر نحوى حتى تأكدت من انتباهى فغادرت المكتبة وسارت فى اتجاه الجامع ... سارت هنية الى حيث يضيق الدرب حتى

يختنق فيه الضوء ولو بالنهار ... وكان علىّ أن أنتظر قليلا ولا أتعجل وأن أتفحص الوجوه هنا وهناك ، ثم اقتربت بعد ذلك من المعلم محمد وأنا أهمس :

« عاوز أعمل زى الناس ! »

فأشار الى نفس الاتجاه التى مضت منه هنية وهو يقول :

« كده على طول ، وبعدين تحود يمين تلقى الميضة قدامك ! »

كنت أعرف الطريق منذ الصباح ، ولم أكن فى حاجة لارشاد المعلم محمد أو سماع ماقاله فقد انشغل ذهنى والتهب بالقلق وأنا أرى هنية تختفى فى الظلام البعيد ولا تبين ... اندفعت إلى حيث أشارت يده مهرولا ، اندفعت مسرعا خلف هنية التى كانت قد دخلت المضيق المظلم ، واختفت فيه .

١١ ــ لم يستغرق احضار هنية لعشاء أبيها كل هذا الوقت الذى غابته عن الدرب ... ولا حاجة للف أو دوران أو وصف المشاعر واللحظات ، فقد مر الوقت كله بى وكأنه حلم لا حقيقة ، كنت أشعر وكأنى أعيش فى أسطورة خيالية تغنى فيها النجوم فى السماء وتدندن بالموسيقى ، ويتحول كل صوت حتى ولو كان نباح كلب الى نغم حلو ترتاح له الأذن وتطرب له النفس ... هى لحظات لا توصف تلك التى اقتربت فيها من هنية عندما انعطفت الى زقاق ضيق ومظلم وخال تماما من الناس ... وبالرغم من أنى كنت موقنا أشد اليقين أن هنية كانت تنتظر فى تلك اللحظات لحاق بها وحديثى معها ، الا أننى ترددت كثيرا ، ترددت حقا فماذا لو صرخت فى وجهى ؟ ... ماذا لو سألتنى عما أريد ؟ ... ماذا لو رآنا أحد أو لحظنا انسان يعرفها أو يعرفنى ؟ ... وعندما توقفت هنية عن السير واستدارت نحوى تلعثمت وتوقفت حركة ذهنى وارتجف قلبى ... لكن هنية ــ أيها السادة ــ كانت تبتسم !

« مساء الخير ياهنية ! »

« وبعدين ياسى براهيم ... حد يشوفنا ! »

لست أدرى كيف نطقتُ بالتحية فقد انطلق لسانى متعثرا متخبطا يقول أى كلام ، ولم تكن هنية تعنى ما تفوهت به فقد كانت لهجتها المرحة تدعو وترحب ... كانت هنية سعيدة فى تلك اللحظات أنا واثق من ذلك أشد الثقة ، فعندما مددت يدى الى يدها فى ظلام الزقاق الذى اجتزناه الى آخر وثالث ورابع ... و ... ولست أدرى فقد كانت هنية تقودنى ، فى تلك اللحظة التى لامست فيها يدى يد هنية ، فرت يدها فى دلال لتحتمى آخر الأمر فى كفى وبين أصابعى !

« وبعدها معاكى يا هنية ! »

لم أكن أعنى ما اقول ، فلم أكن أدرى ماذا أريد أن أقول .

« وبعدها معاك انت ياسى براهيم ؟! »

« هنية ... أنا باحبك ! »

قلتها دون وعى أو تدبير أو تفكير ، قلتها وكأن أحدا غيرى هو الذى قالها ... فقد كان أبعد الأشياء عن ذهنى فى تلك اللحظات انى صحفى وانها ابنة المعلم فتح الله الكتبى ... ولست أدرى حتى الآن — أيها السادة كيف قلت ما قلت وكيف تفوهت بما تفوهت به ، لم أكن أدرى ان تلك الجملة بالذات سوف تقودنى الى طريق آخر غير الذى رسمته لنفسى ... وأنا قطعا لم أكن أعنيها ، فلم أكن قد أحببت هنية بعد ، غير انى أشعر باحساس غريب وطاغ ، وكأنى سحابة حالمة حملتنى الى السماء وراحت تسبح بى بين النجوم فى رقة وحنان ... واستسلمت لاحساسى هذا ،

استسلمت له سعيدا جذلا ورحت أعب منه فى شره وجوع ...

لست أدرى اذا كنا ليلتها قد خضنا فى الوحل أو اخترقنا بركا وبحيرات من الماء القذر ، أو قفزنا من خرابة لنعبر أخرى ، لست أدرى ... فالصورة الآن فى ذهنى تكتمل لجدران اما مهدمة أو عتيقة أبوابها واطئةوكأنها فى عالم سكانه من الأقزام ... صمتت هنية ولم ترد ، وطال بها الصمت ونحن سائرين وفى قلبى نشوة عارمة دافقة جعلتنى أندفع فى حرارة وراء ذلك الاحساس الغامض :

« باحبك يا هنية ... باحبك ... مش مصدقانى ؟! »

وكأنى أطلب منها ألاّ تصدقنى ! ...

ولكنها رفعت الى وجها مشرقا وعينين تفيض منها السعادة فيضانا وراحت تتمتم هامسة :

« فى يوم ياسى براهيم ؟ ... فى يوم ده كله يحصل ؟! »

« فى ساعة ... فى دقيقة ... فى ثانية ... من أول نظرة ! »

رفعت الى هنية عينين براقتين لمعتا فى الظلام ، فقد كنت أضغط على كل حروف الكلمات فى تأكيد وحماس وحرارة .

« سى براهيم ... أنا مش مصدقاك ! »

قالت جملتها هذه — أيها السادة — ببساطة ، قالتها وهى باسمة فأغلب الظن أنها لم تكن تعنى ما تقول ، غير أنى أحسست وكأن كل كلمة قالتها هنية صفعة تدمى صدغى ...

« مش مصدقانى ؟! »

نفثت عيناها بريقا غريبا فى ظلام الزقاق الذى كنا نخترقه ، وكان سؤالى أقرب الى الاستغاثة من الى الاستنكار ، أحسست وكأن هنية تمزق جلبابى وتشير الى بنطلونى وتصرخ فى الناس بحقيقتى ، انتابنى نفس الاحساس الذى أحسسته عندما أوقفنى ذلك الرجل فى الصباح فى عرض الدرب ليسألنى من أنا وما اسمى وما صنعتى و ... و ... وكنت أظن أن هذا الشعور اختفى حتى قالت هنية ما قالت فاذا به كامن فى أعماق رابض فى ظلام نفسى ... كنت أظنه اختفى وانى سيطرت على نفسى وعلى شخصيتى الجديدة ، حتى قالت هنية ما قالت فتزعزت هذه السيطرة وانهار هذا الظن ووجدت نفسى أردد كالمستغيث :

« مش مصدقانى ؟ ... مش مصدقانى ؟! »

ضحكت عيناها لحرارة سؤالى ، لكن نظراتها لم تتراجع ..

« لكن نفسى أصدقك ياسى براهيم ... انت جدع طيب وابن حلال ... والناس كلاتها تحبك ! »

ابتسمت فى تحفز وأنا أستعيد سلطانى على نفسى ، ولاحقتها مازحا وقد بدا لى الانتصار قريب المنال :

« الناس بس اللى بتحبنى يا هنية ؟ ... الناس بس ؟ »

« يوه بقى ... وبعدها وياك ياسى براهيم ! »

« فى يوم يا هنية ... فى يوم ! »

« من ساعة ما دخلت الدرب والقلوب كلها اتفتحت لك ! »

وقعت هنية دون أن تدرى ، رددت كلماتى بعد أن رددت سؤالها ، تنفست الصعداء وأنا أشعر وكأن الكابوس ينزاح من فوق صدرى ، لكن

هنية تنبهت فجفلت وهى تفر بيدها من يدى هامسة :

« حاسب أحسن حد يشوفنا ! »

لكن ذلك — أيها السادة — لم يعد يعنينى فى كثير أو قليل ، فقد نسيت كل شىء ، ووجدت نفسى أعيش تلك اللحظات وأنغمس فيها الى قمة رأسى دون تفكير ، كنت أضحك وأنا أسير بجوارها خفيفا كالريشة ، تدغدغ أعصابى نغمة حلوة من اللذة والسعادة وكأنى اكتشفت فجأة الطريق الى النعيم !

النعيم ؟! ...

ألم أقل لكم منذ البداية أنى انسان خيالى ؟!

النعيم ...

كلمة — أيها السادة — لم أعرفها الا من الكتب أو أبيات الشعر التقليدى ... كلمة — أيها السادة — لم أذقها من قبل ولم أقابلها وجها لوجه الا فى سطور الخطابات وموضوعات الانشاء التى كنت أكتبها وأنا صغير فى المدرسة ... كلمة — أيها السادة — أيقنت لطول الوقت أنها ليست فى عالمنا هذا ، وأن وصفها الدقيق لن تعثر عليه الاّ فى عالم آخر ان وُجد هذا العالم ... لكننى عشتها ، أؤكد لكم ولا تسخروا منى فقد عشتها ، ذقتها ، ومذاقها ليس كالشهد أو العسل ، هو أحلى بكثير ... كأنى كلى ، بخيالى وواقعى وتفكيرى وعواطفى تحولت الى قلب يدق فى سعادة ...

حدث كل هذا فجأة ... حدث على الرغم منى ، ولم تعد المسألة بالنسبة الى تجربة سأعود الى المجلة لأكتبها وأدونها وأكذب فيها على الناس ،

فالقلوب ــ أيها السادة ــ لا تدخل التجارب ، القلوب تحب وتنبض وتخفق بصدق ... فهل من الممكن أن يصل الكذب حتى الى قلبى ؟!! ...

ماذا أقول والكلمات لا تسعفنى ، انى أستعيد تلك اللحظات فيرتجف قلبى وترتجف الشعيرات النابتة على سطح جلدى لهول السعادة التى كنت أحسها ... انه النعيم ، هناك ، بجوار هنية ، فى أى درب أو زقاق أو خرابة ... كنت صادقا فى تلك اللحظات أشد الصدق مرتاحا أشد الراحة مليئا بحياة هى والاسطورة سواء ... وقد طال صمتى حتى تعلقت نظرات هنية بوجهى ... وكان لابد أن أقول شيئا ، لكن صوتى انحبس ، تمنيت أن أجلس على أرض الطريق وأدفن رأسى بين ذراعى وأغيب عن الوجود ، هل تصدقون لو قلت لكم أنى تمنيت أن أموت ساعتها ، لم أكن أريد من الحياة أكثر من ذلك ، بل كان فيما أحسسته فى تلك اللحظات ، أكثر مما تحتمل حياة انسان واحد ...

« هنية ... »

كنت أضحك وعيناى دامعتان ، فالسعادة فى قمتها لا تضحك ، انها تبكى ... تماما كالحزن فى ذروته لا يبكى ، بل يشعر الانسان بمنتهى الراحة ! ... نظرت الى هنية ونظرت الىّ ، وفى لحظة ، كانت يدانا تتخبطان فى الظلام ثم تلتقيان فى عناق حار ...

لكنها ما لبثت أن انتزعت يدها من يدى بسرعة وهى تهمس :

« أوعى أحسن قربنا من البيت يا براهيم ! »

لم أكن لأصدق أن الحلم سينتهى بهذه السرعة ... ما أن نطقت هنية

بكلمة البيت حتى أحسست وكأن شيئا سيختطفها منى ... قلت فى لهفة :

« مش على طول كده يا هنية ... أرجوكى ... أرجوكى !! »

بذور الدهشة تنبت فى عينيها ، ويدها تستسلم لكفى فى عصيان حائر ، وأنا أردد دون وعى أو إدراك :

« هنية ... من فضلك ما تسيبينيش دلوقت ، أنا ... أنا محتاج أقعد معاكى أطول فترة ممكنة ، ولو ... ولو ... خمس دقائق !! »

استسلمت يدها ليدى تماما ، لكن نظرات الدهشة كانت تزداد اتساعا وشفتاها تنفرجان فى غير تصديق وكأنها ترى شبحا غريبا لايخيف ، وانما يبعث على الحيرة ، شبح لا تعرف كنهه وأن كانت تحسه ... انتبهت لنفسى فقد كنت أنا الذى يتحدث لا الجرسون الذى يعمل فى مقهى أبو النجا ، دق قلبى بعنف حتى كاد أن يحطم فى الداخل ضلوعى ، وغاضت الدماء من وجهى وأحسست بالبرد فارتجفت ... من أنا ؟! ... ماذا أقول ؟! ... وبأى لسان ؟ ... و ... وباحساس الذى تعرى فجأة من ملابسه رحت أستر نفسى :

« يا هنية النفر مننا بيشقى طول النهار ، وآديكى شايفة ... من ده لده على ودنه مفيش يا أمة ارحمينى ... شوية معاكى يا هنية يروقوا البال ويريحوا القلب ... »

لكن هيهات ...

كنت أقف أمام نفسى ــ لا أمام هنية ــ وجها لوجه ... عاريا تماما ، وكنت أشعر حقا أنى أحب هنية ، فكيف يحدث هذا ؟ ... كيف

يحدث ؟

أهون على النفس أن يتمرغ الانسان فى طين الطريق وسط ضحكات الناس وسخريتهم ، من ذلك الاحساس الذى كنت أتمرغ فيه وأنا أنظر فى وجه هنية ولا أراها ...

تساءلت بينى وبين نفسى : هل من الممكن أن يحدث هذا فى يوم واحد ؟ ... بل فى نهار واحد فاليوم لم يكتمل ثلثاه بعد ؟!

ولم أجد الجواب ... لم أجده — أيها السادة — حتى الآن ...

فى تلك اللحظات كنت أشعر وكأنى أستيقظ من حلم جميل ، ولم تكن لى رغبة فى هذه الحياة سوى العودة للنوم من جديد ... لم أكن أريد من الأمر كله أن يزيد على كونه حلما ولم أطمع فى أكثر من ذلك ... رحت أعود الى طبيعتى وأنا أنظر الى هنية ، وأحدق فى عينيها ... ورأيت لحظتها فى العينين صدقا بعث الخوف الى قلبى ... كانت النظرات تشطرنى الى شطرين ... كانت تقسمنى الى الصحفى والجرسون وتفرق بينهما وتطالبنى بالاختيار ... فهل كان هذا ممكنا ؟!

وانتبهت أخيرا على صوت هنية وكأنه يأتينى من أغوار سحيقة :

« سى براهيم ... مالك ياسى براهيم ؟ »

كنا نقف عند ناصية شارع بدا فى تلك اللحظات سابحا فى ضباب من الأضواء المتناثرة لعشرات الدكاكين والعربات ... وكانت الأضواء تتكاثر وتتكثف أمام عينى حتى لتحجب عنى الرؤية .... وفى الشارع وعلى جوانبه كانت الحياة تهدر بكل ما فيها من عزم ، الناس والعيال والباعة والأشياء جميعا كانت تمتزج فى كرة ملتهبة ... وفى رأسى أفكار وفى قلبى

أحاسيس كانت تلتهمنى التهاما ... كالنار !

« سى براهيم ... »

« أيوه يا هنية ! »

« خطى الشارع قوام أحسن حد يشوفنا ! »

عبرت الطريق خلفها كانسان فقد أرادته ولم يعد له سوى أن يطيع ، ما كدنا ندلف الى زقاق آخر مظلم ضيق اختنقت فى مداخله الأضواء والأصوات ، حتى قالت هنية بنبرات خافتة حنون :

« انت زعلت منى ياسى براهيم ؟! »

« أبدا ياهنية ... أنا أقدر أزعل منك ؟ ... ما أقدرش »

« سى براهيم ... فيه حاجة مزعلاك ! »

« انتى بتحبينى يا هنية ؟! »

قلتها فى توسل ... ولم تتردد هى لحظة واحدة ... انداح صوتها فى ثقة شديدة :

« ربنا هو اللى يعلم ! »

كانت تقول نعم بكل قلبها ، ان لم يقلها اللسان فقد قالها ارتجاف الصوت ورعشة الشفتين وتردد العينين مابين وجهى والأرض والجدران والسماء بلا توقف ... ولا أدرى لماذا طفرت الدموع الى عينى فى تلك اللحظات وغارت وراء الجفون ... رغبتى الوحيدة فى تلك اللحظات أن أحتضن هنية وأربت عليها وأقبلها وأدفن رأسى فى صدرها ... جَيَشان عاطفى ينتابنى فاذا بى أتقدم نحوها ، كنت أريد أن أعتذر ، كنت أريد أن ...

« تتجوزينى يا هنية ؟! »

كنت أعنيها ...

قلتها فى فرح غامر وأنا اضغط يدها الى صدرى ....

« هنية هنية هنية ... تتجوزينى يابت ؟! »

قلتها وكأنى اتحدى بها كل الناس ... اتحدى بها نفسى واتحدى بها عملى وأهلى واصدقائى ... كأنى أتحدى العالم كله ...

توقفت هنية عن السير وراحت تتطلع الى وجهى ، ثم هزت رأسها وغمرت الابتسامة كل وجهها .. وضحكت !

« بتضحكى على ايه يا هنية ؟! » ...

كتمت ضحكتها وعادت الى المسير خافضة الرأس ... لكنها راحت تضحك من جديد !!

« هنية ... عايز اعرف بتضحكى على ايه ؟! » ...

« أصل ساعات بيتهيألى ان انت مش انت ! » ...

قالتها فى بساطة وسرعة وبسمة ووجه مشرق فلم تكن تدرى ولم يكن ليخطر لها على بال انها كانت تقول الحقيقة ، وانى أنا لست أنا ...

استيقظت من نومى فقد كنت قد عدت الى الحلم من جديد ، ساعتها توقفت على المسير وقد أفقت تماما فكأنّ أحدا صفعنى وأنا نائم ...

وأصبح الواقع وحشيا شديد الضراوة ...

كفت النجوم فى السماء عن الغناء والعزف ، وأصبح نباح الكلب نباح كلب .. كانت هنية تقف أمامى يبدو وجهها فى ضوء الزقاق الخافت

مائلا الى الشحوب ، فى سمرته ظل صفرة لاتخفى على العين ، على رأسها منديل مطرز لايزيد ثمنه عن خمسة قروش وإن بدا نظيفا لكن المكواة لم تمسسه بطبيعة الحال ... فستانها ينسدل بلا ذوق من الكتفين حتى منتصف المسافه مابين الركبة والقدم ، كان فستانا أبيض اللون تناثرت فيه زهور فاقعة الألوان ... فى قدمها شبشب تآلف لونه مع لون قدميها العاريتين مع لون تراب الأرض ... هل من الممكن أن أتزوج من فتاة مثل هنية ؟!

« بتبص لى كده ليه ياسى براهيم ؟! » ...

« ايه اللى خلاكى تقولى كده ؟ » ..

« أقول ايه ياسى براهيم ؟ ... » ..

شهقت ورفع اصبعها الى شفتيها كأنها تريد أن تعيد اليهما الكلام ...

« تقولى ان أنا مش أنا يا هنية ... ايه اللى خلاكى تقولى كده ؟! » ...

ضحكت ودارت شفتيها بأصابعها ... وبدا أنها ستتكلم لبرهه ، لكنها لم تقل شيئا سوى : « أنا اتأخرت قوى ! » ... ثم انفلتت تعدو وسط الأزقة ... وكنت أقف وحدى وقد عجزت تماما عن الحركة !

هل سأراه استاذا فى الجامعة ، أم سأراه مجرد جرسون كما هو ؟! ... من يدرى ... كل شىء كان يبدو لى فى تلك اللحظات ــ أيها السادة ــ محتملا أشد الاحتمال ، بل انى لم أدهش بالمرة عندما وجدت نفسى أعكس السؤال فاقول : كيف سيرانى حسن بعد عشرين سنة ؟! ...كاتبا لامعا يقدره الناس ويحترمون أعماله ويصدقونها ويتابعونها بشغف ؟! ... أم مجرد جرسون كهل فى مقهى أبو النجا ؟! ... أو ربما بائع كتب فى دكان صغير لا زالت رائحة المعلم فتح الله عالقه به ؟! ...

من يدرى ــ أيها السادة ــ من يدرى ؟! ...

كل شىء كان يبدو لعينى فى تلك اللحظات محتملا أشد الاحتمال ... ذلك أن احساسا غامضا ورهيبا كان يتسلل الى نفسى بهدوء ليسيطر عليها لحظة بعد لحظة ... وكان يفعل !! ... كأنى عثرت على هنية بعد طول غياب ، كأنى كنت أحبها حقا بطول سنوات عمرى ، لكنى لم أعرف ذلك ولم أعه بل أعيشه واتنفسه مع الهواء ... كأنه شىء كان ينقص حياتى ، أو كوب ماء كنت أسعى اليه طوال عمر يقاس بطول صحراء ليست بها قطرة واحدة من الماء ..

أنا يا سادة أقف الآن متأملا تلك اللحظات الغريبة فيقشعر بدنى ويكاد شعر رأسى أن يقف ... لكنى أيضا أشعر بلذة لا تفوقها لذة وأنا أتحدث عن أى شىء فى درب الجماميز ... وأكثر الاشياء حبا لنفسى هى لحظاتى مع هنية ...

وكما استأذنتكم ــ أيها السادة ــ فى التوقف قليلا لأنى الهث ... فأنا استأذنكم الآن فى عدم التوقف فلست بقادر على ذلك ... صدقونى ،

لست قادرا !!

ان مجرد تخيلى لحالة الزقاق فى تلك الليلة يثير فى نفسى شتى الأحاسيس ..

كنت أنا الذى صنعت هذه الحياه التى تهدر أمامى بالمرح والسعادة !

التماثيلجية يبدون من بعيد وكأنهم تماثيل برونزيه رائعة لأبطال يجلسون حول مائدة في عصر مضت عليه قرون عديدة ... شلة المعلم كامل لازالت تطلق الصيحات المتحمسة والتعليقات الصارخة وكأن كل رجل منهم يعيش آخر لحظات حياته ... المعلم فتح الله يتوسط أصدقائه . وعلى الارض أمام المكتبة تجلس زوجته وهى تحمل طفلها الصغير الذى يرضع من ثدى يغطيه طرف الطرحة السوداء ... الأطفال الصارخون والبنات السائرات ، والنساء الساهرات ، والتحيات والسباب والكلام والنوافذ المضاءة وخيالات الظل تتلاعب على حيطان الغرف الواطئة الناعسة الضوء ، والضحكات الخافتة والأحاديث الناعمة ، والشبان الجالسون أمام مكتبة عمران وعيونهم المفعمة بالحب المتسلقة للجدران المتعلقة بالنوافذ والشرفات ... كل شىء ... كل شىء يكاد يلهبنى بألفِ حب .

كنت أقف فى مدخل الدرب أتملى فى كل شىء عندما وقف بجوارى شابان ، كانا غريبين فلم يعرفانى وكانا يتحدثان أمامى بحرية ...

« ايه الحكاية ... الدرب ماله النهاردة زايط ؟! » ...

« حقه يا جدع ، كل ليلة كنا نعدى نلاقيه مِدَخّمس » ...

« بتبص على أيه يا جدع ؟! » ..

كان المعلم قد انتابه القلق ... لقد غبت عن الدرب دقائق طالت عما كان يُقَدّر ، ثم عدت لأحملق فى ناصية الدرب دون أن أعنى بالرد عليه ... أحسست به يتحرك من خلف النصبة ليرى ما الخبر ، فلحقته قبل أن يغادرها وسددت عليه الطريق وأنا ابتسم قائلا :

« حدش طلب حاجة يا معلم ؟! » ..

« انت كنت فين كل ده ؟! » ..

قالها والشك يملأ نظراته ... قالها وعيناه معلقتان بوجهى فى اصرار عنيد ... وكان لابد أن أرد ... وكانت الابتسامة لا تزال معلقة فوق شفتى :

« أبدا ... كنت باشرب سيجارة يا معلم ! »

ارتخت تقاطيع وجهه فجأة وبأن عليه الهدوء ، وخبا فى عينيه بريق الاصرار والعناد ، ونبعت من تحت جلده الحائل اللون ابتسامة أغرقت الوجه وفاضت من العينين ، ثم عاد الى مكانه قائلا :

« طب ومالك خايف كده ؟ ... ودى فيها حاجة يعنى ؟! » ..

استدرت نحو الحوض ورحت أعبث فى الاكواب والفناجين وأنا ألوك جملته فى ذهنى ... الحجة التى سقتها اليه واهية كخيط العنكبوت ، فماذا لو دخنت السيجارة فى المقهى ؟ ... ومنذ الصباح حتى الآن دخنت أمامه عشرات السجائر ، فلم يكن من تقاليد مقهى أبو النجا ألا يدخن العامل أمام معلمه ... توقفت لبرهة وأنا أتمعن فى رده الغريب !!

أأكون قد فاجأته بالجواب فاقتنع ؟!

لابد أنه سيسألنى بعد ثوان وسيطلب تفسيرا فلا يمكن أن يصل

غباؤه الى هذا الحد ... لابد أنه سيسألنى بعد قليل لماذا دخنت السيجارة بعيدا ، ورحت على الفور أبحث فى ذهنى عن جواب ملائم ... « أصلى حبيت أتمشى شوية فى شارع الخليج ! » ... أيكون الشك قد راوده فى أنى تبعت هنيه ! « ... أبدا يا معلم ... دا الهوا فى شارع الخليج سلاااام ... والجو حلو ! » ... ولابد أنه سيصدق هذا لثوان أيضا لكنه سيعود ليسأل سؤالا آخر يستفسر فيه عن ... عن ..

حركة ذهنى تبطىء وتبطىء ثم تتوقف تماما عند شىء هام ، وكما يحدث فى الأفلام البوليسية ، صاحبت الحقيقة فى ذهنى صرخات موسيقية كنت أحسها فى كل أعصابى ... ما الذى يقصده المعلم محمد ؟! ... وقبل هذا ، ما الذى فهمه من جملتى ؟! ...

لقد قلت له بالتحديد : « كنت باشرب سيجارة ! » فلابد أنه ظن أن .. اننى .. أنه ... وجاءنى صوته وهو يهمس من خلف النصبة فى سعادة وانشراح :

« معايا حتة كويسه ، تحب أرصها لك على البورى ؟! » .

* * *

« مساء الخير يا ريس ... هات لنا تلات كراسى هنا وحياة والدك ! » ...

« حاضر يا بهوات من عنيه ! » ...

عند الباب ، كان الثلاثة يقفون باسمين وهم يلقون التحية محاولين بها أن يبدوا فى أشد الحالات طبيعية ..

قلت لهم : حاضر يا بهوات من عينه ، وأنكرتها على نفسى ، قلتها بطريقة

طبيعية وكأنى لا أعرفهم ... لكن بالرغم من ضيقى — أيها السادة — لوجودهم ، لم أستطع كبت ذلك الاحساس الذى شملنى بالفرح لحضورهم، كأنى لم أرهم منذ سنوات... غير أن أحساسى هذا ذبل وكاد يموت وأنا أرى نظراتهم تنهال على نهشا ساخرا ، انقبضت بالضيق لكنى تمنيت لو أستطعت مصافحتهم واحتضانهم ، ثم تمنيت لو استطعت طردهم وهم يبتسمون تلك الابتسامة الأليفة التى تعودت ابتسامتى أن تلقاها دائما ... اضطرب قلبى بالحنين واضطرب فى الوقت نفسه بالغيظ ... فما الذى جاء بهم الى هنا ، وفى ذلك الوقت بالذات ؟! ... وما الذى يريدونه من مجيئهم ؟ ... ومن الذى أخبرهم بمكانى ، ومن . و ... ...

وكان السؤال الاخير حاضر الجواب ، فلابد أنه سمير ...

كانت لحظات غريبة — أيها السادة — تلك اللحظات ... لحظات مر بعضها فاذا بى أشعر عن يقين وكأنى لا أعرف هؤلاء الثلاثة حقا ، وكما يكتشف الانسان فجأة أن تحت قدميه هوة بلا قرار ، كنت أحس فى بعض اللحظات أنى لا أنتمى اليهم وهم لا يمتون إلىّ بصلة ما، أىّ صلة ... أنا حقا هذا الذى قال وهو يستدير باحثا عن مقاعد خالية : حاضر يا بهوات من عنيه ... لأنى كنت مؤمنا تماما بما كنت أفعل ... كنت سعيدا به ، بل كنت فخورا — أيها السادة — أن أقول : حاضر يا بهوات من عنيه ، ثم أنكر معرفتى بهم عندما سألنى المعلم محمد همسا :

« تبعك دول يا براهيم؟! » ...

« مين ؟ الأفندية دول ؟ ... ولا أعرفهم !! » ...

اسرعت بالمقاعد الى حيث وقفوا عند الضفة الاخرى لناصية عطفة

النيدى ، بجوار التماثيلجية ، لا يفصل هؤلاء عن أولئك سوى عرض العطفة الذى لا يزيد على الثلاثة أمتار ... رصصت الكراسى دون أن أرفع الى أحدهم عينى ... أسرعت بحمل المائدة النحاسية الصغيرة اليهم ووضعتها أمامهم ، ثم سددت عينى فى عينى عادل وأنا أقول :

« أيها خدمة يا بهوات » ..

« ما انت زى الجن أهه ... أمال سمير بيقول أنك تعبان ليه ؟! » ..

« أيها خدمة ... » ...

قلتها متجاهلا ما قاله عادل معتدلا فى وقفتى قاطعا الطريق أمام الحديث الذى أرادوا أن يدور بينى وبينهم ..

« عندكم أيه ؟! » ..

قالها عادل وشفته السفلى تتدلى بعيدا عن شفته العليا فى ابتسامة مشحونة بالتحدى لشىء لا أعرفه ... نفس الابتسامة التى تعودت أن ألقاها كل ليلة بتحد يزيد الحياة من حولى اشتعالا ... نفس الابتسامة التى قابلتها بالامس وأول أمس و ... واذا اليوم ينكمش فجأة ليصبح يوما بعد أن كنت أحسبه عمرا ، وإذا الاحساس تتضاغط فى صدري حتى يضيق بها ، واذا بى أرد عليه فى برود وكأنه سلبنى أعز ما أملك :

« عندنا كل حاجة يابية ، فيه كازوزه وقهوه وشاى وقرفه ... وفيه شيشه اذا حبيت ! » ..

« طيب هات لى شيشه ! »

« والبيه ؟ » ...

قلتها لمحمود وأنا أرقب وجهه المربع وابتسامته المائعه التى لا تنبىء عن

شىء ، فرد على وهو يرمقنى بعينيه فى حماس مخلص وساخر :

« هات لى شاى بس صلحه ! » ..

« والبيه يشرب ساقع والا سخن ؟! » ..

واسترخى صابر فى مقعده وهو يقول لعادل :

« المكان ده حلو ياوله ... شايف الطراوة ؟ » ..

كانت عطفة النيدى تمتد أمامهم الى مسافة لا تزيد على عشرين مترا ... يسدها من الطرف الآخر ظهر بيت تآكل جداره وتساقط طوبه ، وعلى طول المسافة من الجدار حتى ناصية العطفه ... بدا كل شىء هادئا تماما ، مظلما نصف ظلام ، ليس هناك سوى باب واحد هو باب بيت عبد السلام افندى الذى تصعد اليه فوق قطعة حجر صنعت سلما الى المدخل ... ومن أعلى حائط البيت كانت أمواج هواء الليل الرطيب تهب موجة وراء موجة ..

وقد التفت محمود الى الداخل عندما قال صابر ما قاله عن الطراوه ، وكأنه يريد أن يراها بعينيه ، لكن عادل لم يلتفت ولم يتحرك بل قال فى صوت حديدى النبرات :

« ما تقول للراجل عاوز تشرب أيه الاول وبعدين اتكلم عن المكان والطراوة ؟ » ...

« هات لى ... اسمع ... عندكم عرقسوس ... تمر هندى ... حاجة من الحلوه دى ؟! » ..

« لا والله يابيه ... فيه بسكال واسباتس بس ؟ » ..

« وايه البسكال ده ؟ ... كازوزه برضه ؟ » ...

وأطلق صابر ضحكة جلجلت فى المكان ، ووراءها انطلقت ضحكة أخرى من محمود ظلت تعدو خلفها حتى اختفتا سويا وسط زيطة الدرب وصيحاته ، وقال عادل متمتما :

« هات له اسباتس ! » ...

« حاضر يابيه ! » ...

وصاح صابر قبل أن أتحرك :

« استنى عندك ، لهو انت حاتشربنى على مزاجك يا أخى ، افرض انى مش عايز اسباتس .. أما حاجة غريبة والله ! » .

كنت أعرف تماماً أن كل هذا سوف يحدث ، وأن شيئا لا يمكن أن يمر دون نقاش وأخذ ورد، وان عادل لابد أن ينقد ويتحدى ويخبط رأسه فى حائط النقاش الصلد ، وأن صابر لابد له أن يسأل ويتقصى ويستفسر وكأنه جالس فوق مصطبة فى احدى القرى ، وان محمود سينصت حينا ويؤيد هذا ويؤيد ذاك سائرا فوق حبل رفيع من المجاملات ، واجدا مبررا لكل شىء . وحجة وراء كل تصرف دون أن يدلى برأى باتر أو صريح ... كنت أعرف ــ أيها السادة ــ كل هذا ... وغالبا ما أحسست بالضيق ، وفى بعض الأحيان كنت أشعر وكأن علاقتنا حلقة تضيق حول عنقى حتى لتكاد تخنقنى ... لكن الغريب انى لم أشعر بتلك الحلقة المفزعة فى تلك الليلة ، كنت أطل عليهم من أعلا مبتسما ، أحس فى أعماق بسخرية شديدة ، كما أحسست وفى نفس الوقت وبقدر مساو برغبة جارفة فى الجلوس وسطهم ، والتصفيق بيدى ودخول المعركة مع عادل حول أى شىء ... معركة لابد أن تحدث ، ولا يمكن الاّ أن تحدث ... هكذا

استمرت علاقتى به لسنوات طويلة !! ..

وماذا بعد أيها السادة ؟ ... ماذا بعد هذا الاسترسال ؟!

حقا لست أدرى ... ان التعب الذى كان يهد جسدى فى تلك اللحظات ، والذى بدأت أشعر به فجأة ، كان أخف بكثير من ذلك الضنى الذى أحسسته فى صدرى ... ومنذ أن تركت هنيه فى مكان ما وسط ركام البيوت الشاحبة المطلة على طرف الدرب الآخر ، وأنا أعيش فى دوامة يزداد دوران موجها لحظة بعد لحظة ... وكانوا هم — أصدقائى الثلاثة — لا يزالون سادرين فى نقاشهم المتراوح بين الحدة والرقة صعودا وهبوطا دون توقف ... وكان صابر لا يزال يردد بنفس النغمة المستنكرة الضاحكة :

« افرض يا أخى انى مش عاوز اسباتس ... انت مزاجى ؟! »

وكان عادل يردد فى عناد واصرار :

« آهو اللى تعرفه أحسن من اللى ماتعرفوش ! »

وكان محمود يردد بين قول هذا وذاك :

« أصل الاستاذ صابر بيحب يجرب ! »

وعاد صابر يردد من جديد :

« هو حايسقينى على مزاجه ... أما حكايه يا ولاد ! »

وعاد عادل يقول :

« طيب على كيفك ، هات له بسكال ! »

« مش عاوز بسكال ! ... هه !! »

« طب هات له اسباتس ! »

« ولا عاوز اسباتس كمان ! »

« ما تطلب بقى يا أخى وتريحنا ! »

« مش حاشرب حاجه ... هيه ... روح يا جدع هات لى قرفه ! »

« حاضر يابيه ... حاضر ! »

تركتهم ورائى وكأنى أهرب من كابوس ، مررت فى طريقى بالتماثيلجية فلمحت زجاجتى البيرة أمامهم فارغتين ، واجتذبنى نداء الاسطى فاروق :

« أيه يابو خليل ، انت نسيتنا والا أيه ؟! »

اندفعت نحوهم وأنا أرتمى وسطهم لالتقاط الزجاجتين الفارغتين صائحا :

« أنا ؟! ... أنا أنساكم ؟! »

« طب هات لنا قزازتين تانيين ! »

« من عنيه ! »

ما كدت أستدير عائدا الى المقهى حتى سمعت عادل ينادى :

« هس ... هس ... يا ريس .. يا أخينا ! »

وفرقعت أصابعه فى الهواء فاستدرت عائدا اليهم صائحا ملء صوتى :

« أيوه جاااى ... أيوه يابيه ؟! »

عندما وصلت اليهم كان صابر يقول بصوت رائق هادىء :

« والله فكره يا ولاد ! »

ولاحقنى عادل :

« عندكو بيره ساقعه ؟! »

« موجود يابيه ؟! »

« ساقعه ؟! »

« تلج يابيه ! »

« طيب هات لنا قزازتين ، بس اسمع ، لو ماجبتهمش ساقعين مش حانشربهم ، فاهم ؟! ... »

« عيب يابيه ... اذا ماكانوش تلج بلاش تفتحهم ! »

واستدرت عائدا عندما لاحقنى بقوله :

« الا قول لى ... انت اسمك أيه ؟! »

« محسوبك براهيم يا سعادة البيه ! »

وساد الصمت ...

ساد الصمت وعلا الوجوم وجوه الثلاثة فبدت بلهاء ، كما بدت عيونهم فارغة تنبىء عن حيرة لاتخفى ... وسرى الوجوم والحيرة الى قلبى أيضا فبقيت فى مكانى جامدا كالتمثال وجملتى الأخيرة تتردد فى أذنى بلا توقف ... كنت قد نطقتها بتوكيد من ولد بهذا الاسم ، قلتها فى بساطة وقوة وبلا تردد وكأنى ولدت فى درب الجماميز ونموت فى مقهى أبو النجا ، قلتها باحساس من يخاطب قوما غرباء عنه ... وبالرغم من سخرية عادل التى بدت فى ملامح سؤاله ولهجته ، فقد كان ردى جادا كل الجد ، كان رد رجل بلغت به الشهامة حدا جعله يحترم من يحاول السخرية منه ، لاعن جبن ، ولكن عن كرم ، لأن الساخر فى بيته !!

وأيا كان الامر — أيها السادة — لقد كانت جملتى هذه تحمل احساسا غريبا ، أحساس كالسكين يقطع بلا رحمة ما بينى وبين هؤلاء الأفندية الثلاثة الجالسين أمامى فى ظلال العطفة ، احساس لابد أنه أثر

على كل منهم نفس التأثير الذى تأثر به الآخران ... فقد ظلوا جميعا واجمين لدقائق هرب فيها محمود بعينيه الى الدرب وراح يرقب ما فيه ، كان يجلس فى الطرف قابضا على سلسلة مفاتيحه بأصابع قلقة وهو يرفع يده بين الحين والحين الى شعيرات رأسه التى تغطى صلعا زحف منذ سنوات ... وكان صابر فى الطرف الآخر ، نصف ظهره للدرب ونصفه للحائط المقابل لمنزل عبد السلام أفندى ، وعيناه الضيقتان تبرقان فى الظلام وهما تسددان الىّ نظرات دهشة غريبة ، وظل ابتسامة تزحف الى شفتيه لكنها سرعان ما تتراجع ... أما عادل فكان يجلس بينهما أمام ظله المرسوم على الحائط خلفه ... كانت ملامحه جامدة وكأنه يواجه أمرا لا يعجبه بحال ولا يستسيغه ولا يقبله ولابد من الرد عليه بعنف وقوة ، تحولت عيناه الى فوهتين تطلقان نظرات متحدية سافرة العداء ، غير أنه لم يجد ما يقوله ، فراح يداعب كتابا كان يحمله بين يديه ، وازداد تدلى شفته السفلى ، وتململ فى جلسته ثم قال :

« ابراهيم ؟ ... واشمعنى ابراهيم يعنى ؟! »

« هو حر يا أخى ... أما حكاية يا ولاد ... انت حاتشارك الناس فى أساميهم كمان ! »

قال صابر ذلك فتساقط القرف من وجه عادل وهو يقول :

« طيب يا سيدى ، تشرفنا ياسى زفت ، روح بقى هات لنا قزازتين ساقعين ... فالح قوى يا روح أمك ! »

« حاضر يابيه !. »

قلتها بجد متجاهلا ضحكة صغيرة أطلقتها كذيل لكلامه اللاذع ...

وعدت الى المقهى .

١٣ — اقتربت الساعة من الثانية عشرة — منتصف الليل ! — ولا زال المولد منصوبا ... مضت على الدرب ساعات كان كل من فيه سعيدا ، همد الأطفال بعد طول صياح ولعب ، وجلسوا على أبواب البيوت يتحدثون ويحكون الحكايات ويتفرجون على ما حولهم من حياة بدت عليهم جديدة كل الجدة .

ووقف المعلم محروس الفران أمام باب المقهى محملقا فى كل ما حوله غير مصدق ، وراح يجيل بصره هنا وهناك وهو يردد كالمأخوذ :

« ايه ده ؟ ... ايه الحكاية يا محمد يابو النجا ! »

لم يرد عليه المعلم محمد ، بل راح يعد له كوب الشاى وهو يصيح بى :

« البورى لمحروس يا براهيم ! »

على الفور رحت أعد البورى وأجهز المعسل وقطع الفحم الملتهبة للزائر الجديد ... رأيت محروس فى تلك الساعة من الليل وهو واقف بجلبابه

السميك وجسده النحيل ووجهه الذى كان ينز بالعرق ... كان وجهه — أيها السادة — أحمر شديد الحمرة وكأنه قضى سنوات بلا عدد تحت قرص الشمس الملتهب ، رفع محروس طرف جلبابه وألقاه فوق كتفه فبانت ساقاه النحيلتان ، سحب مقعدا وجلس عليه ومال الى الامام وغرق فى صمت لم يطل ، صب المعلم محمد كوب الشاى وهو يقول :

« ده محروس الفران ، يوم فى الفرن ويوم فى القهوة ... بينام هنا ، فى المخزن ! »

ولم يقل المعلم محمد أكثر من ذلك كلمة ، حملت الصينية والبورى ووضعتهما أمام محروس فتناول منى مبسم البورى ورفع الى وجهه المحترق قائلا :

« اسم الكريم ايه ؟! »

« محسوبك براهيم ! »

« مرحب ... يا مرحب ... مراحب ! »

ابتسم محروس ملء فمه وراح يزيح العرق بأصبعه من فوق جبهته ويلقى بقطراته الى الارض ، جذب نفسا من البورى وراح يسعل ويسعل ثم بصق على الارض وأخذ يدخن من جديد ، وقعت عيناه على كوب المياه المثلجة فألجمت الدهشة لسانه لثوان ، لكنه رفع الكوب وازدرد ما فيه دفعة واحد ، ثم التقط قطعة الثلج بلسانه وراح يمتصها بشغف وهو ينظر الى بعينين مشرقتين ... ذابت قطعة الثلج فرشف محروس من الشاى رشفة ومال نحوى متسائلا :

« جيت امتى يا براهيم ؟! »

الود يغلف كلماته والترحيب يزفها الىّ ، ولا أرد فقد لاحقه المعلم محمد :

« بعد انت ما مشيت امبارح ييجى بنص ساعة ، جدع طيب وابن حلال ! »

ساد الصمت برهة عاد بعدها المعلم محمد الى الحديث :

« أصل محروس بيروح الفرن من نص الليل لنص الليل ، يشتغل يوم ويرتاح يوم ! »

وقال محروس وهو يفرغ الشاى فى جوفه :

« يا مرحب يا مرحب ... منور الحته والنبى يابو خليل ! »

مضت الدقائق وجف عرق المعلم محروس الفران ودخن البورى وطلب كرسيا آخر وراح يرقب الدرب بعينين ملتهبتين صاحيتين وهو يردد النظر بين الناس وبينى ... طلب ماء فقدمت له كوبا مثلجا شربه وصفق بيديه سعادة وهو يصيح :

« براهيم يا براهيم يا نوارة الحته ! »

انتهى المعلم فتح الله من مبارياته وأغلقت الطاولة وجلس الرجال أمام مكتبه يدردشون ويتندرون ويتحدثون حديث المساء الخافت حينا ، العالى حينا آخر عندما يريد أحدهم أن يوصل لجار بعيد رأيه فى شىء ... كذلك أغلق المعلم كامل الطاولة وطلب شيشه وجلس يدخنها وسط الصحاب وهو يلقى ببصره نحو المعلم فتح الله الذى كان واضحا أنه كسب المباريات ، بينما هو قد خسر كثيرا وكسب قليلا . اختفى العجلاتى منذ جاء ولده ومضى به ولم يعد ، وبدأت الحلوانية فى لم شعث

دكانها والاستعداد لاغلاقه ، امتلأت النوافذ والبلكونات بالبنات والنسوة وكلهن يقزقزن اللب ويثرثرن ويضحن بين الفينة والفينة :

« يا براهيم ... تلاتة اسباتس ... براهيم .. اتنين بسكال .. براهيم .. .. »

ويتدلى « السبت » بحبل طويل ، وأسرع لأضع فيه الزجاجات وأتسلم القروش الملفوفة فى ورق قديم قطع من جريدة أو كراسة كانت ذات يوم محل اهتمام تلميذ ومدرس ... فى ركن المقهى قبع حسن فوق مقعد وتدلت ساقاه وتشابكت أصابع يديه وراح يرقب كل شىء فى سكون ... لم يفلح صياح المعلم محمد فيه أن يعود للبيت ليأتى فى الصباح مبكرا ... ولم يفلح الحاحى عليه بأن يروِّح فقد أصر على البقاء بكلمات متقطعة واصرار غريب .

ثم ... ثم هدأ الدرب وشمله سكون كانت تتخلله همهمات المتحدثين والمدردشين ... وقفت بباب المقهى مستنداً الى حائطه المتآكل ، ورحت أرقب المعلم ممدوح فى جلبابه الأبيض النظيف ، وجلسته المتربعة الصاحية ... على يمينى كان التماثيلجية يتحدثون بحماس وصوتهم يخفت حينا ويعلو حينا آخر ، ومن بعدهم وعلى بعد خطوات كان أصدقائى يشربون البيرة وقد غرقوا الى آذانهم فى مناقشة حامية كانت أصواتهم تهدر أثناءها بانفعال وحماس ... و ...

معذرة أيها السادة ...

لابد لى من التوقف هنا قليلا ...

... ...

... ...

ان قدمى تنزلق الى بئر الكذب من جديد ، ولسانى يدور ويدور محاولا الهرب ، فالحقيقة انى ما قلت كل هذا الذى قلته الآن الا لكى أهرب ...

لم أكن أرقب المعلم ممدوح فى جلسته المتربعة الصاحية كما أدعيت ، كنت أكذب وأشط بكم فى الحديث لأصف أشياء لم تحدث ... الواقع انى كنت افعل شيئا آخر ، وبصراحة ، كنت أتسمع الى حديث التماثيليجية بانتباه شديد ، حتى أنى تسللت ساحبا أحد المقاعد ثم جلست بالقرب منهم كى لا تفوتنى كلمة مما كانوا يقولون .

فمنذ أن جهزت زجاجات البيرة لهم ولأصدقائى والأشياء تتحدد من حولى تدريجيا ... كانت الساعة فى ذلك الوقت تقترب من منتصف الليل ، وكان السكون يهل والحركة تخف ، وكلما هل السكون وخفت الحركة ، كلما بان الكلام والنقاش وأصبح هو النغمة السائدة الدرب ، وقد كان أصدقائى يتناقشون ويتحدثون ويقولون أشياء كثيرة ، لكن الغريب أنها أشياء ليست معادة ولا تتكرر الجملة فيها مرتين ، لم يلفت نظرى الى حديثهم ويجذبنى اليه ان المشكلة كانت بينهم وبين المعلم الكبير صاحب الورشة ... لكن الذى لفت نظرى انهم كانوا يقولون شيئا !

سمعت الاسطى عبد السلام يصيح فى لحظة من اللحظات :

« يعنى حانفضل ساكتين للراجل ده لأمتى ؟! » ، فكانت هذه الجملة هى البداية ... لقد انجذب اليهم انتباهى مرة واحدة ، لم تكن جملة

الأسطى عبد السلام فى حد ذاتها هى التى جذبت انتباهى ، بل هى لهجته ... صوته كان حادا باترا ، انفعاله محدد القسمات واضح النبرات ، علا صوته حقا ، لكنه كان علو الواثق الذى يقرر أمرا لم يعد يقبل كثيرا من الجدل .

ورد عليه ساعتها الأسطى رمضان بنفس الحدة :

« طب ماترسوا لنا على بر بقى يا أسطى ! »

ورد الأسطى فاروق فى هدوء :

« مفيش غير حل واحد ، نتوكل على الله من بكره ! »

« ونسيب له حقنا ؟! »

« احنا مش حانسيب يا جدع ، انما ايه الفايدة لما نستنى معاه ونرفع قضية عليه ! ... ما هو برضه حيلاقى حاجات يعملها ويزوغ بيها ... حايلف على الوزارة ، والمفتشين والمحامين ويعيط ويتمسكن ويطلع فى الآخر زى الشعرة من العجين ... وبرضه حايفضل غالبنا ... هى دى شغلته بصحيح ، مش التجارة ولا الورشة كمان ! »

فى تلك اللحظات — أيها السادة — تسللت ساحبا أحد المقاعد ثم جلست بالقرب منهم كى لا تفوتنى كلمة مما كانوا يقولون ... بدت لى المناقشة غريبة ، كان كلامهم يحمل معان واضحة محددة فكأن كل كلمة تلخص ساعات من الحديث المتصل ...

باختصار ... كانوا يقولون شيئا !

لم تكن هناك حلقات مفرغة يدورون فيها كما اعتدت أن أفعل مع أصدقائى كلما تناقشنا أو تحدثنا حول موضوع ... كنت دائما أشعر

وكأنى أعود الى نفس النقطة التى بدأنا منها كلما انتابتنا حالة نقاش حامية ... بل انى أستطيع أن أراهن بعمرى كله ، انى كنت أعرف تماما كل ما كان أصدقائى يقولونه فى نفس الليلة ، بل فى نفس تلك اللحظات وهم جلوس على الضفة الاخرى من عطفة النيدى المطلة على درب الجماميز ... أنا لم أسمع من حديثهم سوى جملة واحدة فقط ، سمعتها مصادفة ، وبالرغم من ذلك يبدو لى طريق المناقشة واضحا أشد الوضوح ... هو هو نفس الطريق الذى سرنا فيه من قبل ليالى وليالى ، نفس الكلام ونفس الخلاف ونفس الجمل ونفس الحدة والتشاتم والتعصب والتخبط ... لا يمكن أن يتغير شىء وأراهن بعمرى كله ... ظللنا لثلاث سنوات طوال كنا نتقابل فيها كل ليلة !!

قبل أن أسحب الكرسى وأجلس بالقرب من التماثيلجية بقليل ، علا فى الدرب صوت عادل وهو يقول منفعلا غاضبا :

« ده عضو فاسد يجب بتره ؟ »

ولم أسمع بعد ذلك شيئا ، ولم يكن يعنينى أن أعرف من هو هذا العضو الفاسد الذى يجب أن يبتر من المجتمع ، كنت على يقين أن عادل صديقى يتحدث عن شخص ما ، أى شخص أخطأ فى وزارة مؤسسة أو مجلة أو شركة أو ... أو أى مكان فى بلدنا من الاسكندرية حتى أسوان ... المهم أن سمات هذا العضو الفاسد لا يمكن أن تتغير ، خطأ أو عدة أخطاء وقع فيها ، ولا يهم عادل أن يكون مواطنا شريفا أو رجلا طيبا أو يكون قد غير مجرى صناعة أو فن أو صنع معجزة ... لا يهم عادل هذا . كل ما يهمه فى الموضوع أن الرجل أخطأ ويكفى ، ومن يخطىء

يجب أن يعاقب ، حتى ولو كان خطؤه نتيجة الانتاج والعمل ، فعادل صديقى ــ أيها السادة ــ لا يعترف بالأخطاء ولا يقبلها مهما كانت صغيرة أو تافهة ...

وعلى العكس منه كان صابر ــ أيها السادة ــ رجل معتدل ، لكنه كان فى تلك الأيام يعبر فترة غريبة من فترات حياته ، ان أشياء كثيرة تتغير أمام عينيه وتتبدل ، انه رجل آمن بمبادىء عظيمة ظل يعمل من أجلها سنوات دون أن يخطر بباله أن فى الإمكان تحقيقها ، وإن تحققت فليس فى الامكان أن يلحقها جيله ، كانت تبدو له دائما بعيدة المنال ، تبدو له فى الأفق كسراب أو نوع من أنواع الخيال ... لكنه صحا ذات يوم ليجد السراب يتجسد والحلم يصبح أشياء محددة يكفى أن يمد يده اليها فيتحسسها ويلمسها ، فانهارت كثير من الحقائق فى ذهنه فوق بعضها البعض واختلطت وتميعت ، وكان لابد له من رفع الانقاض وبناء شىء جديد ... هكذا ــ أيها السادة ــ كان صابر فى اليمين واليسار معا وفى آن واحد ، الجميل فى هذا يعيشه والجميل فى ذلك ينادى به وتكفيه بعد ذلك هذه الجنة !

أما صديقى محمود ــ أيها السادة ــ فقد كان دائما حمامة سلام لاتستقر على حال ، هى أحيانا تطير الى اليمين وترقد فيه وتتغنى بمحاسنه ، وهى أحيانا تلتقط الحب من اليسار محلقة فى سمائه ... هو هنا هناك دون تحرج .

واعذرونى ــ أيها السادة ــ ان كان الحديث قد أخذنى ... فأنا فى الحقيقة لم أفكر فى كل هذا فى تلك الليلة ، فان حديث التماثيلجية وقتها

أخذنى وامتصنى بمجرد جلوسى بجوارهم وقريبا منهم .

الاسطى الكبير صاحب الورشة لم يكتب معهم عقوداً ، وكلما طالبوه بكتابة عقود لضمان حقهم ومستقبلهم ، تملص وتهرب ... كانوا يعرفون أنه يتهرب من أشياء كثيرة ، لكن الذى كان يعنيهم حقا هو حقوقهم ، وكانوا يبحثون عن حل للمشكلة ... وقد انتهوا من البحث واستقروا على رأى وراحوا يدردشون حول الموضوع ... أكثر ما يدهشهم فى الأمر كله هى شخصية المعلم الكبير ذات نفسه ...

« الغريبة أنه اتغير بالشكل ده يا جدعان ... هى الفلوس بتعمل ايه فى الناس ؟! »

« شوف يا أسطى رمضان . الراجل ماتكشفوش الا فراغة عينه ! »

طلبوا زجاجة بيرة أخرى وراحوا يمارسون جلسة المساء بعيدا عن المشاكل :

« فضلت تقول لنا ده راجل طيب ، ده راجل طيب ، لحد ما أكل حقنا ! »

« وأنا كنت أعرف منين ، وحياة النبى ده لما كان بيشتغل معايا فى ورشة السكاكينى كان راجل زى السكر ... آهو كان زى حالتنا كده ! »

« كان بيقعد على قهوة البرج ... كنت بأشوفه هناك ! »

« ما هو الراجل ماتكشفوش الا فراغة عينه ! »

« يا خلق الله ... لما كلمته آخر الجمعة اللى فاتت ، باقول له يا أسطى الرجالة يعنى عاوزة تحط تقلها عليك ... قال لى : حد منكم

ناقصه مليم من يوميته ؟ ... قلت له مش المهم النهاردة ، المهم بكرة !! »

« هو البنى آدم منا ضامن يومه ؟ وما دام حقنا ، ليه ماناخدوش ؟! »

« ويصرف على اللى بيصرف عليهم ازاى ؟ »

« سمعتوا يا جدعان اللى حصل الجمعة اللى فاتت ؟! »

* * *

وقد سمعوا بلا شك حكاية الأسطى رمضان ، أما أنا فلم اسمعها ، فقد كانت هنية تهل على الدرب من بعيد وشبحها يتراقص فى ظلال الليل كأنها تعلن للناس فرحتها ... كان الدرب لا يزال على حاله ، الرجال جالسون هنا وهناك غارقون فى حديث كسول أو صمت متقطع ... على يسارى كان محروس الفران يجلس فوق مقعده وقد أحنى جذعه للامام ومبسم البورى لا يفارق يده ، بينما شفتاه تمصانه بين الحين والحين فى أنفاس سريعة وقد جحظت عيناه وهما ترقبان كل شىء من حوله كأنه يريد أن يعوض ما فاته من أحداث اليوم ... وكلما التقت عيناه بعينى هز رأسه محييا وأطلق كلمة :« مرحب » عبر المسافة التى تفصله عنى .

عادت هنية الى الدرب فارتدت روحى الىّ من جديد ، دخلت نطاق النور وكانت تحمل فى يدها لفافة الطعام وتحمل على وجهها كل علامات الاشراق ... رأيتها تتبادل مع سعدية نظرات أشرقت بها العيون وتفاهمت ، انحنت لتضع الطعام بين يدى أمها ، وتهامست معها ثم ابتسمت الأم وابنتها معا ، واستقامت بعد ذلك هنية لتعبر الدرب نحوى وفى يدها كوز

المياه الكبير ، تقدمت منى أمام الجميع ووقفت أمامى وقالت بنبرة من قررت أمرا لم يعد محل نقاش أو تردد :

« سى براهيم ... حداك ميه ساقعة ؟! »

« حدايا يا هنية ... من عنيه ! »

« تسلم لى عينيك ان شاالله ! »

رفع محروس الفران مبسم البورى الى شفتيه وجذب منه نفسا طويلا واعتدل فى جلسته وهو ينفث الدخان من أنفه فى سحابات خفيفة ... نظرت اليه بجانب عينى وأنا أنحنى على الصندوق لاخراج قطعة من الثلج وكانت هنية بجوارى ، وكان هو يبتسم ابتسامة واسعة ... اقتربت منى هنية حتى كادت أن تلتصق بى وهى تهمس :

« اتعشيت ؟! »

مرت عيناى بوجه محروس بسرعة وقلبى يدق ، وارتفعت عيناى نحوها وأنا أقول :

« تصدق بالله .. أنا على لحم بطنى من الصبح لحد دلوقت ! »

ولم استطع المقاومة ، رحت أرمق محروس من جديد فالتقت عيناى بعينيه الفاجرتين ... كان الرجل يبتسم ، بل كان يضحك ملء وجهه النحيل ، وكان مائلا على جانبه ملتصقا بالحائط وكل خلجة فيه تقول : لقد عرفت !!

أيقنت على الفور أن شيئا لابد سيحدث ، أيقنت أن مصيبة ستحل بالدرب السعيد ... ماذا يقول الناس لو عرفوا هذا الذى يدور بينى وبين

هنية ؟! ... نظرات الأم البعيدة لاتنبىء عن شىء سوى السعادة والفرح الصامت ، الطفل نام فى حجرها ، ونامت فوقه لفافة الطعام التى أحضرتها هنية ، أسرعت بغسل الثلج ووضعه فى الكوز ، فتحت الصنبور على آخره حتى امتلأ الكوز بالماء وسلمته لهنية .. ووقعت أصابعها فوق أصابعى ، ومرت لحظات هى فى الحقيقة لمحات خاطفة ، لكنها اختطفت روحى وعصرت قلبى وابتسمت هنية وهى تنسحب بالكوز لتعبر الدرب الى حيث تجلس أمها .

وهنا — أيها السادة — حدث ما لم أتوقعه .

نهض محروس ووضع المبسم فوق المقعد وكان واضحا أنه يريدنى ، هرولت الى الداخل فسد علىّ طريقى المعلم محمد الذى كان قد غادر مكانه ، عيناه فى عينى ، صدره أمام صدرى ، أنفاسه تتردد وشفتاه تتمتمان بكلام كثيرلم أسمعه ... بل فهمته فقط !

« أبدا يا ملعم ... كانت بتقول لى اتوصى حبتين بحته التلج ! »

« وبعدها معاك يا براهيم ، هو التلج ده ببلاش ؟! »

وجدتنى أرد على الرجل فى حدة :

« والمشاريب اللى بياخذوها دى ببلاش ... دول زباين يا معلم محمد ! »

« ازيك يا براهيم ؟! »

كان محروس يقف خلفى وقد دس يديه فى جيبى جلبابه ورفعهما الى صدره فانشلح الجلباب وتعرى جزء من ساقيه .

« مرحب يا معلم محروس ! »

« والنبى انت جدع طيب وابن حلال ! »

ارتجف قلبى وهوى بين ضلوعى كحمامة مذبوحة ، مر على النهار وتبادلت مع هنية عشرات النظرات وتحدثنا وتقابلنا وتبادلنا الاشارات فلم يلحظ أحد فى الدرب ولم يعترض طريقنا مخلوق ... ثم جاء الليل برجل بدا من الوهلة الاولى متحفزاً للشر باسما له مرحبا به ... ماذا يريد المعلم محروس الفران ؟ ... وما الذى تعنيه ابتسامته الصفراء هذه؟! ... والى أى مدى يمكن أن يتدخل وأن يثق وأن يوقن أن بينى وبين هنية شيئا ؟ ... المعلم محمد أمامى ومحروس على يسارى وعيونهما تنطق بما لم أستطع تفسيره ولسانى يتلعثم وقلبى يدق ... وتلتقط اذناى تصفيقا آتيا من الخارج وصوت صديقى عادل ينادى بلهفة :

« يا براهيم ... يا براهيم ... »

وكأنها نجدة هبطت على من السماء ... فقد صحت وأنا أفر من وجه الرجلين :

« أيوه جاااااى ! »

تركتهما مهرولا وقلبى يدق فى انفعال وخوف ، اندفعت الى حيث كان الثلاثة جالسين فى مكانهم ، لا زالت فى زجاجتى البيرة بقايا والاكواب لم تفرغ فلم النداء اذن ؟! ... النظرات مركزة على وجهى ، ونسمة تهب من العطفة ، وأتنفس ملء صدرى وأنا أغسل وجهى فى الهواء الرطب وأهرب بعينى بعيدا عن عيونهم المحملقة :

« أيوه يا بهوات ... أيها خدمة ! »

« ايه حكاية البت دى ؟ »

كمن يستجير من الرمضاء بالنار ، تساقط العرق ليغرق جسدى ويتساقط من تحت ابطى ... تداخلت المرئيات أمامى وابتسمت ابتسامة لا معنى لها وعاد عادل يردد بصوت خافت :

« سيبك من الشغل ده ... علقتها امتى ؟! »

ضحك محمود ضحكة خجلة ، وداري شفتيه ، واهتز جسده بالنشوة ... وشب صابر فى مقعده وهو يهمس بصوت خشن :

« بصراحة ياوله ... انت مكشوف قوى ! »

« البت مش بتنزل عينها منه ! »

« ودى تبقى جزء من التجربة يا روح أمك ؟! »

« والنبى حلوة ! »

« الآ حلوة ... دى زى الجمار ياولة ! »

« كانت بتقول لك ايه ؟ »

« اسمع ، الشقة تحت أمرك ... بس انت يالله ! »

« ده خيبان ... بلا نيلة ! »

« ها ها ... ها ... »

« والا حاتعمل لى شريف فى دى كمان ؟ »

« ما تقول يابنى آدم كانت بتقول لك ايه ؟ »

« ده باين عليه بيحب يا ولاد ! »

« بيحب ؟ ... هو ده وش نعمة ؟ »

« البت التانية تبقى مين ؟ »

« حاتقول والا نسأل احنا ؟! »

« براهيم ... يا براهيم ! »

كان الاسطى رمضان هو الذى ينادى ، نظرت اليه مستغيثا ...

« أيوه يا أسطى ... حاضر ... حاضر .. »

التفت نحو الثلاثة وأنا أكظم مافى نفسى من نار كانت تحرقنى ...

« أيها خدمة يا بهوات ! »

« استنى هنا ... انت حتاخذنا فى دوكة ؟! »

« لأ ... سيبه يروح للزبائن وبعدين ييجى ! »

« أيها خدمة يا بهوات ... أيها خدمة !! »

« جرى أيه يابن ال ... انت واخد الحكاية جد قوى ! »

« أيها خدمة ! »

« تشوف الرجالة عايزين أيه وترجع ... يالله قوام ! »

خطوة ، وخطوتين ، وفى الخطوة الثالثة كنت أقف أمام التماثيلجية وكل شىء يميد تحت قدمى من الانفعال والغيظ معا ، أيقنت أن ما تخيلته قد يحدث بين لحظة وأخرى ، وأن عملا كالذى فعلته هنية لا يمكن أن يمر على الدرب بسلام ... كانت هنية — أيها السادة — تعاملنى أمام الجميع وكأنى عزيز تعرفه منذ أن ولدت ، انتابنى الدوار للحظة ، ربما بتأثير التعب والجوع فقد كان جسدى يتمزق وساقاى لاتكادان تحملانى .. تداخلت فى عينى وجوه التماثيلجية حتى أصبحت وجها واحدا بعشرات العيون والأنوف والآذان ، هززت رأسى وتنفست ملء صدرى فأفقت وعادت الصورة الى طبيعتها فاذا وجوههم جميعا نحوى ، وعيونهم تحاصرنى ... مضت ثوان قبل أن ينطق الاسطى عبد السلام وهو يحملق فى وجهى :

« ايه يابو خليل ... مالك ؟! »
« سلامتك يا أسطى ! »
« لونك مخطوف ! »
« أبدا ... »
« العيال دول ضايقوك فى حاجة ؟ »
كان يومىء برأسه نحو أصدقائى وباستهانة شديدة ...
« مين ؟ ... الأفندية دول ؟ »
« تعرفهم ؟ »
« المعلم محمد بيقول دى أول مرة ييجوا فيها هنا ! »
« فيه حاجة مضايقاك ؟ ... »
« أبدا يا أسطى ... سلامتك ! »
« طب هات لنا قزازة بيرة ... وشوف عمك فتح الله عايز ايه ... ده بيصقف لك من الصبح ولا انت هنا ! »
« حاضر ... »

قلتها وأنا أميل بكل جسدى عابرا الدرب الى حيث كان المعلم فتح الله يجلس مع صديق بعد أن غادره الآخرون ... كنت أترنح وكأنى شربت أطنانا من الخمر ، بدا لى كل شيء تغلفه غلالة دامسة ، بعدت الأصوات وكأنها كانت تأتينى من أغوار بلا قرار ، كأن بينى وبين الناس آلاف الأميال ... ما الذى سيحدث وكيف أتصرف وما الذى يمكن أن أقوله ... ما إن استدرت مغادرا التماثيلجية حتى توقفت فى ذهنى جملة راحت تطن فى أذنى طنينا معذبا : « شوف عمك فتح الله عايز ايه ؟! » ...

التماثيلجية أيضا لاحظوا ، كشفواالسر ، عرفوا المخبوء ، ولا تفسير لابتساماتهم سوى انهم يعرفون ، الدرب كله يعرف ، أصدقائى يعرفون ، محروس يعرف ... و ... ولماذا قال الأسطى عبد السلام « عمك » فتح الله ولم يقل المعلم فتح الله ؟ ... أنا لا أسمع ، ولا أكاد أرى ... هنية ... هنية جالسة بجوار أمها ، عيناها معلقتان بوجهى والابتسامة تملأ وجهها ولو علمت ان الناس يعلمون لاختفت من وجهها علامات السعادة وحل محلها الشقاء والألم ، هذا أكيد ... ماذا سيقولون عنها ، كيف تعود الى الدرب بعد أن تلوك سيرتها الألسن ... أنا أعرف أن الحب عند أولاد البلد حرام الا فى الحلال ... أعرف كيف تصبح السمعة ملطخة ، وكيف تجرى الدماء لكل كلمة تقال أو ربما نظرة تسدد فى غير موضعها ...
« مالك ... واقف كده ليه يا جدع؟! »
« أيوه ياعم فتح الله ! »
عم فتح الله ... مرة أخرى ؟!!
لماذا لم أقل يا معلم ... لماذا تتلاشى ارادتى و ...
« جرى ايه يا براهيم ؟ ... انت باين عليك تعبان !! »
وصوت عادل كالمطرقة يلح على أذنى :
« يا براهيم ... يا براهيم ... »
والمعلم فتح الله :
« براهيم ! » ... وصيحة هنية : « براهيم ! » ... ومن بعيد كان المعلم محمد يصيح : « ما تشوف ماله يا جدع ؟! » ... والأسطى رمضان : « براهيم ! » ... وعادل : « براهيم ! » ... وسمير

« براهيم ... براهيم ! » ... سمير هنا ، سمير هناك ، هنية ، والدنيا .. وأمى .. وأبى .. وا . و .

هواء ... هواء ... أريد أن أستنشق الهواء ... أريد أن أحيا ... أريد أن أخرج من ذلك الجب الذى اصطادونى فيه ... انى اختنق ، حلقى مسدود ، يد تعتصر عنقى ..

« حاضر يا معلم ... أيوه يا معلم ... »

قلتها واستدرت عائدا الى المقهى والبيوت من حولى تتراقص وتتمايل ، أستدير فيستدير حولى ومعى كل شيء ، الارض والسماء والاضواء والوجوه ، وجوه وجوه ... أسير وأسير ... حلم غريب ، كابوس ... ماذا أصابنى وما الذى يصيبنى ، انى أرتعش من البرد ، أطرافى مثلجة ، جلدى مشدود ، هواء ... هواء ... نسمه ... النمل يزحف على صدرى بالآلاف ، النمل يقرصنى ، صراخ ، صوات ، نواح . صفيّر . وطفل يزعق من بعيد ، من عشرات السنين : ماما ... ماما ... يستغيث ، هنية هناك ... على الضفة الاخرى للنيل ، للدرب ، لا ... للنيل ... هنية .. هنية تنهض ، نظراتها فزعه ، وجوه ، أفواه ، أسنان ، عيناها واسعتان . بحر . بحر عميق بلا قرار ، صادقه ، صادقه ، أنا خائف ، أنا كذاب ، الجنية هناك ، القصر المسحور ، الجواهر ... و ...

« مالك يا براهيم ؟! ... مالك ؟! »

« دايخ ... دايخ شويه ! »

كنت أراهم ولا أراهم ، كنت أسمعهم من بُعد مئات السنين ، أشباح تتحرك ، أجساد تتداخل ، يد حسن الصغير تتشبث بذراعى ، وجهه

وجهان ... وعيناه أربع عيون ... انى خائف ..

« مالك ياسى براهيم ؟! »

حسن مذعور ، عيناه مذعورتان ... الحقيقة ... أنا كذاب ..

« ايه العبارة ؟! »

ممدوح يهزنى من كتفى ...

« خبر ايه يا براهيم ؟! »

وجه محروس يلتصق بوجهى ، فتحت فمى لارد عليه ، لكنى شهقت ، وانتفضت ، وارتددت الى الخلف ، وتساقطت قطرات المياه التى رشها المعلم محمد من وجهى ...

« ليه كده يا معلم ؟ ! »

خرج صوتى أخيرا ... افراج ، اهتز رأسى بعنف ، بدأت الأصوات تعود الى أذنى بصرخات وصفارات رفيعة وصراخ طفل يعود مذعورا : ماما ... ماما .. والوجوه تنحدر ، وحسن يقفز بفمه الملىء بالمياه ثم يدفع المياه الى وجهى ، لاحقته بصفعة لم تطله فقد فر من أمامى ضاحكا ، دفعنى ممدوح الى مقعد جلست عليه ورحت أتطلع الى الوجوه التى ازدحمت حولى ، وانفرجت الوجوه كلها تفسح الطريق لآخر وجه توقعته ... كانت هنية تدفعهم مفسحة لنفسها طريقا ، وقفت أمامى والذعر فى عينيها :

« سلامتك ياسى براهيم ! »

فى يدها بصلة مدشوشة كانت تقربها من أنفى :

« خد شم دى ! »

طفرت الدموع من عينى بالرغم منى وأنا أحرك رأسى فى الهواء مبتعداً بأنفى عن رائحة البصل النفاذة ...

« لأ يا هنية ... لأ .. »

وضعت يدها على رأسى ودست البصلة فى أنفى فشهقت متنفسا من فمى لكنها لم تتركنى ...

أفقت تماما ...

« بلاش كده يا جماعة وحياة النبى ... بلاش اللمه دى ! »

علم الدرب كله بالخبر ، وترك الرجال مقاعدهم ، واشرأبت اعناق النسوة وهن يتطلعن نحو المقهى بقلق ...

« ابراهيم تعبان ... جت له دوخة ! »

« شمموه بصل ! »

« بخوا فى وشه شوية ميه ! »

« ماهو طول النهار ياحبة عينى ماهمدش ، رايح جاى زى المكوك ... الله يكون فى عونه ! »

« ياجماعة دى الدنيا زمته شويه .. خلوه يشم الهوا ! »

« ايه فيه ايه ... عن اذنك يا أخينا ... مالك ياصا .. يا ... يا ... »

رفعت عينى لاجد الدكتور سمير أمامى وجها لوجه ... فى يده حقيبته ، وخلفه كان الثلاثة يتطلعون نحوى وفى عيونهم قلق بدا فى ذلك التجهم الجاد الذى ارتسم على ملامحهم ... امسك سمير برسغى وهو يتمتم :

« أنا لسه واصل سمعت الحكاية ، رحت اجيب الشنطه من العربية ... حاسس بايه ؟! »

انتفضت واقفا وأنا أقول مبتسما :

« جرى ايه يا جماعه ... مفيش حاجة ... مفيش حاجة ! »

وأحسست بصدر هنية يحنو على صدرى ، وكفها يرتفع الى ذراعى ليحيطه بأصابع حنون ، كان وجهها قريبا من وجهى ، ورائحة البصل كالعطر تفوح من حولى ، وصوتها يغرد فى قلق رقيق :

« سلامتك ياسى براهيم ... سلامتك ! »

« تسلمى يا هنية ... تسلمى !! »

١٤ — لم تمض على الدرب دقائق حتى عاد كل شيء الى حاله ، مضى على انتصاف الليل نصف ساعة ولم يعد المولد منصوبا ، همد العيال بعد طول صياح ولعب ، ثم دخلوا البيوت وغرقوا فى سبات عميق ، اختفى التلاميذ من مكتبة عمران وخف رواحهم وغدوهم ، وسحب عمران مقعدا جلس عليه أمام باب مكتبته وحيدا يتأمل الناس من حوله فى سكون ، وفى يده كتاب مغلق ... حدث الذى حدث فنزلت على الدرب من بعده سحابة قاتمة لونت حديث الرجال بلونها فخفتت اصواتهم ورقت احاديثهم كما خفتت اصوات النسوة والعذارى فى البلكونات والنوافذ وتباعدت نداءاتهم حتى كادت تتلاشى تماما ، لكن الحديث الخافت كان يتجمع فى سماء الدرب فى سحابات من همهمات لاتنقطع ... مضت دقائق كنت اقف فيها بباب المقهى سارحا ناظرا الى لا شيء أمامى ، حتى فرقع صوت عادل كالسوط يجلد به ظهر السكون ويمزقه :

« لكن ده عضو فاسد يجب بتره ... مفيش علاج غير كده ! »

لابد أن دائرة الحديث هناك عادت الى الدوران من جديد وقد زاد عددهم واحدا بعد حضور سمير ... ومن خلفى سرى الىّ همس المعلم محمد وكأن صوت عادل قد ذكره بأمر ما :

« براهيم ... براهيم ! »

التفت نحوه وكان مائلا من خلف البنك ، شفتاه الشرهتان منفرجتان عن نصف ابتسامة وهما تتمتمان فى نفس الوقت بكلمات تبينتها بصعوبة :

« مش كنت بتقول أنك ما تعرفهمش ، أمال الدكتور قاعد معاهم ازاى ؟! »

وتذكرت لحظتها انى انكرت اصدقائى ساعة مجيئهم ، كنت قد نسيت لكنه لم ينس ... وقعت فى الحيرة لثوان وكدت اترك سؤاله بلا جواب ، وكدت اذكر له الحقيقة أيضا ، لكنى وجدت نفسى فى النهاية اقول :

« ما أعرفش ، يمكن أصحابه هو ... لكن أنا ما أعرفش ! »

وعاد المعلم محمد يلح فى اصرار :

« يا جدع دول كانوا بيتكلموا عنك وانت مسورق ! »

هززت كتفى وأنا أستدير مبتعدا عنه ، فاستوقفتنى عينا حسن فى الركن تبرقان كعينى قط يتحفز للانقضاض ، توقفت لبرهة أمام الوجه الصغير فابتسم ، ثم تدحرج نحوى خفيفا وهو يقول بحنان :

« ما ترتاح انت شويه ياعم براهيم ! »

امتدت ذراعى لتحيط كتف حسن ، اخذته الى أحد المقاعد ورحت

اتملى فى تقاطيعة ...

« حاتقعد معانا لآخر الجمعة بصحيح ياعم براهيم ؟! »

كانت النظرة المتحفزة قد اختفت لتحل محلها نظرة أخرى حانية ، ابتسمت للصغير وأنا أدس فى كفه قرشا خفية من المعلم محمد ، ثم قلت له :

« ماحدش عارف يا حسن ... دى أرزاق ! »

« ماتخليك معانا على طول والنبى ! »

تذكرت حديثه معى فى الظهيرة فخفق قلبى ... ووجدت نفسى أقول بلا وعى :

« بالك يا حسن ... انت حاتوحشنى قوى ! »

« دى البت هنية كانت بتعيط وانت مسورق ! »

« الود ودى اقعد معاكم على طول يا حسن ... على طول ! »

« طلعت تجرى جابت بصلة ، وانكفت على وشها لما رجلها وقعت فى نقره ! »

خطفت من وجه هنية نظرة سريعة ، لم أكن خائفا هذه المرة من الفضيحة ولم ارتعب ولم أحذر مما يمكن أن يقال عنها أو عنى ، بدا لى الأمر فجأة وكأنه شىء عادى يباركه الجميع ... وكانت هنية لا تزال فى جلستها بجوار أمها وعيناها على المقهى لا تفارقانه ... وقلت لحسن مغيرا مجرى الحديث :

« مش عاوز تعرف أنا باخد كام يوميه يا حسن ؟! »

« ماتخليك معانا على طول والنبى ياعم براهيم ! »

« ما اقدرش يا حسن ... ما أقدرش ! »

« طب وهو أنت لقيت شغل لسه ! ... لما تلاقى شغلانه فى حته تانيه ! »

صفق المعلم كامل ، فانفلت حسن مسرعااليه ولم اتحرك ... استدار محروس نحوى برأسه ولا زال مبسم البورى بين يديه وعلى شفتيه لم يغادرهما ، ثم صاح بصوت ثاقب :

« يا براهيم يا براهيم يا نواره الحته ! »

انتابتنى فى تلك اللحظات ـــ أيها السادة ـــ راحة عميقة ، مددت ساق أمامى ورحت أسترق النظر نحو هنية وأتسمع الى التماثيلجية ... كانوا قد عادوا الى دردشتهم وحكاياتهم عندما صاح الأسطى فاروق فى مرح :

« بقى احنا حانروح ورشتنا بكره يا جدعان ؟ ... ياسلام ... يا سلاااام .. »

مال عليه الاسطى رمضان وهو يعبد كوبه الى سطح الصندوق الفارغ :

« بالك يا جدع ، لو عرفنا نسوّق البضاعة كويس ، حاتبقى الأشيا معدن! »

وعاد محروس الى الصياح مصفقا بمرح :

« حلاوتك والنبى يا براهيم ... دى الحتة ردت فيها الروح يا جدعان والناس قاعدة بتتسامر ! »

أحسست وكأن كل شىء يضمنى اليه فى حنان ... نهضت واقفا وتقدمت من باب المقهى ، كانت بعيدة عنى تفصلنى عنها عدة أمتار ،

لكن الحقيقة أنى كنت فى حضنها وأنها كانت فى حضنى ... قد تبدو لكم كلماتى ــ أيها السادة ــ بذيئة أو مبتذلة وغير منتقاة ، لكنى فى الواقع أتعمد ذلك فأنا لا أحب تغليف المعانى بكلمات لا تحددها بشكل قاطع . كنت فى تلك اللحظات كالسابح فى بحور خيال لانهاية لها ، كنت غارقا بين يدى هنية اللتين احاطتا بذراعى ساعة أن هببت واقفا ورائحة البصل تملأ خياشيمى ... كان صدرها لا يزال حانيا على صدرى ، وكان وجهها قريبا من وجهى ورائحة البصل تملأ أنفى كالعبير ... كم تمنيت فى تلك اللحظات أن أرتمى فى حضنها وأنام ... أو أبكى !!

كم تمنيت ذلك ...

لبى حسن طلب المعلم كامل وجاء ليقف بجوارى ويلتصق بى مرددا بصره ما بين وجهى ووجه هنية ... وكانت أمها تفض لفافة الطعام فوق جسد الطفل الممدد على حجرها ، وكان أبوها يقلب صفحات كتاب فى يده بعد أن غادره صديقه وبقى وحده متربعا فوق المقعد أمام المكتبة ، تضافر كل شىء على اسعادى ، وكان أول السائرين فى هذا الطريق هو محروس الفران ... صفق بيديه وطلب لى شايا على حسابه ، ابتسمت شاكرا وهرول حسن ليحضر الشاى ، وتحرك المعلم محمد خلف النصبه وصاح ممدوح ضاحكا من الرصيف الآخر :

« وليه البعزقه دى يا محروس ! »

اسند محروس مبسم البورى الى المقعد ونهض فى مكانه ودس يديه فى جيبىّ جلبابه ورفعهما الى صدره فانشلح الجلباب وبانت ساقاه ، كان يبتسم فى سعادة ومرح ، ظل يقترب منى حتى كاد أن يلتصق بى ثم

سألنى فى صوت خافت :

« الا انت ساكن فين يا براهيم ! »

رغم التعب والارهاق ــ أيها السادة ــ ورغم السعادة التى كنت استحلبها فى فمى ، فقد أصبحت محترفا ، ولم يعد الكذب عندى شيئا يحتاج الى مجهود أو تأنيب ضمير أو اعداد :

« فى بولاق يا معلم محروس ... ليه ؟! »

قلتها بلا مبالاة ولا اهتمام وأنا اسحب مقعدا واجلس عليه ، تطلعت الى محروس ملقيا برأسى الى الخلف مغمضا عينى عنه وعن كل شىء ، لكنى سمعته يقول :

« وساكن بكام ؟! »

« بخمسين قرش ! »

فتحت عينى على محروس وهو ينحنى بجوارى قائلا فى اصرار :

« خمسين قرش ؟ ... ليه ؟ هو انت يوميتك كام ؟ »

« ولم أرد ...

« اسمع يا براهيم ، احنا ان ما اكلناش عيش وملح النهارده ، حناكله بكره... انت دلوقت منا وعلينا، والمشوار بعيد عليك كل يوم رايح جاى رايح جاى ، ولازم تركب ... والموصلات برضك عاوزه مصاريف !! »

« آهى ماشيه يا معلم محروس ! »

« وليه ماتنامش معايا فى المخزن وتوفر النص جنيه ؟! »

« مخزن ايه ؟! »

« مخزن القهوة ، آهو قدامك فى العطفة ، والحصيرة اللى تقضى

راجل تقضى اتنين والدنيا صيف ! »

استدرت نحوه ورحت أحملق فى وجهه ، بدا لى الامر وكأنه حلم بعيد عنى التصديق ... وكان محروس لا زال يتحدث ...

« وانت يعنى حاتفضل كده يعنى ؟! »

« قصدك ايه يا محروس ؟! »

« يعنى انت يعنى حاتفضل عازب على طول ؟! »

صدقونى أيها السادة لم يكن فى حديث محروس ما يثير الاستفزاز أو الضيق ، بل كان حديثه رقيقا صديقا ودودا يقطر الصدق من كلماته بلا مواراة ولا افتعال ودون تطفل ... رحت اتفحص وجهه النحيل وذقنه النابته وطاقيته التى انزلقت الى الخلف وقد تملكتنى الدهشة ...

« قلت ايه يا براهيم ؟! »

لم يكن عندى ما أقوله ، كان عندى فقط ما أحسه وأشعر به ... ماذا أقول وأنا أرى الرجل يسير نحو هدفه صريحا واضحا ودون لف أو دوران ...

« والا انت يعنى ناوى تفضل عازب طول عمرك ؟ »

فقط ... أحسست فى البداية بالحرج والخجل ، رحت أبحث عن اجابة لسؤاله فلم أجد ... طال صمتى وطال انتظاره فقلت متهربا :

« طيب ما انت عازب آهو يا معلم !! »

بانت الدهشة على وجهه ، وفغر فاه مستنكرا ، ثم صاح بصوت ملأ الاسماع كلها :

« مين اللى قالك كده ؟ ... انا متجوز والحمد لله بس العيال فى

البلد لحد ربك ما يعدلها وترسى لها على بر ... وآنى شايف برضه يعنى أن الحكاية قريبه من بعضها !! »

أزقع صياحه الفزع فى نفسى فرحت أتلفت حولى ، غير أن الجميع كانوا غارقين فى أحاديثهم أو صمتهم غير ملقين بالاً لشىء أو لاحد ممن أو مما حولهم .. قلت بصوت خفيض وأنا أرتجف انفعالا من شىء لا أدريه :

« حكاية ايه يا معلم محروس ؟! ... حكاية ايه اللى قريبة من بعضها ؟! »

كنت أحملق فيه وقلبى ينتفض ، لكنه ضحك ضحكة من كان ينتظر الانكار ...

« يا جدع دانى شايف بعينى دى ... وما دمنا غاويين بعض ، يابخت من وفق راسين فى الحلال ... تحب اكلم لك أبوها ؟! »

وكأنه كان يضربنى على أم رأسى بمطارق من حديد ... ما هذا ؟! ... ما الذى يقصده هذا الرجل ؟! ... والى أين يقودنى الطريق ؟! .. وهل ... وهل ... هل ...

« قلت ايه يابو خليل ؟ ... خير البر عاجله ! »

لم أرد ...

« وما دام أبوها راضى وأمها راضيه ... »

صمت قليلا ثم قال مطلقا ضحكة مدوية :

« وأنا كمان راضى ... »

وترددت الضحكة فى جمجمتى كمطارق كانت تدمر عظامها ... الى أين يقودنى هذا الطريق الذى يريده محروس ؟ ... وكيف .. كيف ..
« جرى لك ايه يا جدع .. تحب أكلم لك أبوها !؟ »
كان يهزنى من ذراعى ، فانتبهت قائلا فى صوت كالفحيح :
« محروس ... محروس .. »
حملق الرجل فى وجهى دهشا فقد كنت وكأنى اقف على شفا حفرة من النار سأتردى فيها بين لحظة وأخرى ... كنت منزعجا لسبب لا أدريه فقد كان حديث محروس وديا ... انتابنى رعب حقيقى جعل الرجل يجفل فى البداية ، ثم يلزم بعد ذلك الصمت عجبا ...

لطالما وقفت أمام تلك اللحظات ــ أيها السادة ــ دهشا أنا الآخر ... علام كان هذا الفزع ، علام كان هذا الانزعاج الفاجع الذى أحسست به وقتها ؟ ... علام ؟! ... لم يكن خوفا على هنية من الفضيحة قطعا ، فقد كانت لهجة محروس وكأنها ستار يؤمن ما خلفه ويحميه ... كأن الحب شيء مقدس لا يقبل جدلا وليست من صفاته الفضائح وأحاديث الناس ، لست أدرى ... لست أدرى ... لكنى كنت مرتعبا من شيء ما ... شيء أكاد أراه وألمسه بيدى ، لكنى لا أعرفه ، دفعنى خوفى هذا الى الفرار سريعا ، فقد نهضت وأنا أدفع محروس عن طريقى قائلا :
« أنا ماحبش أسمع كلام من ده تانى يا محروس ... فاهم ؟! »
قلتها وأنا أنحدر الى أرض الدرب دائرا كالذبيح ما بين التماثيلجية وأصدقائى ، تتردد فى صدرى صرخات عاتية لآلام لاتوصف ، وكان محروس يضحك وهو يتبعنى بعينين تفيضان بالحنان ، وكان صوته يسرى فى الدرب

مع تصفيق كفيه فكأنه يغنى موالا :
« براهيم يا براهيم يا نوارة الحتة !! »

١٥ ــ عاد عادل يهوى بصوته فوق ظهر السكون صائحا فى حدة :

« لكن ده عضو فاسد يجب بتره ... مفيش علاج غير كده ! »

وران بعد ذلك الصمت ، والتقت عينا عادل بعينى ، فقد كنت قريبا منهم لحظتها ... كانت عيناه حمراوين بفعل البيرة والغضب معا ، راح يسدد نظراته الى وجهى فى تحد واضح غير خفى ، فاستدرت مبتعدا فقد كنت أعلم ما يمكن أن يفعله عادل فى مثل تلك اللحظات ... رحت أرقبهم من بعيد، وكان هو يجيل بصره فى وجوه الثلاثة كالنمر الغاضب بحثا عن شيء يثير الانفعال أو الغضب ، لكن صابر كان ينظر الى السماء محدقا فى البدر الذى أطل من فوق بيت عبد السلام افندى ، وبدا أنه راح فى غيبوبة حملته بعيدا عن هذا العالم . وألقى محمود بنظراته فوق الارض فى سهوم جعله يبدو كالتمثال ، يده اليمنى تقبض على سلسلة مفاتيحه فى حرص وكأنه طفل جائع يقبض على ثدى أمه ، أما يسراه فتقبض على اليمنى ا فيها !! ... وبدا سمير فى وسطهم حائرا ، بدا وكأنه لا يعرف ماذا

يقولون ، كنت أسمعه فى بعض الاحيان يلقى بتعليق أو يتحمس لرأى أو يؤيد فكرة ، لكن سرعة حديثهم وحدته أوقعتاه فى الحيرة فلاذ أغلب الوقت بالصمت ... وقد طال الصمت فى تلك اللحظات وطال ترقب عادل لبدء المبارزة من جديد ، لكن أحدا لم يتحدث ، لاصابر ولا محمود ولا سمير ... فما كان من عادل الا أن أفرغ ما تبقى من البيرة فى جوفه ، وقال فى صوت مهدد آمر :

« نشرب كمان قزازة بيرة !! »

وفى مثل تلك اللحظات ــ أيها السادة ــ لم يكن هناك من يستطيع مجاراة عادل فى شرب البيرة والصراخ والعناد والنقاش سواى ، فى مثل تلك اللحظات ــ أيها السادة ــ عندما يدخل الليل ويعم السكون ويختفى الضجيج وتسرى قطرات البيرة فى دمائنا ، لابد وأن يحدث شيء لا يمكن أن يتغير مهما تغيرت الأحوال أو الظروف ... كان لابد أن يستيقظ صابر من تأملاته ليضع كفه فوق فوهة كوبه قائلا : « أنا استكفيت ! » ... أما محمود ، فكان لابد وأن يلم شعث نظراته المبعثرة من فوق الأرض ، ليستجمعها فى نظرة واحدة تطيش فى الهواء بلا هدف ليقول : « لا يا أستاذ عادل ، أنا مش حاشرب تانى .. أنا ماعييش فوس !! » ... وفى تلك الليلة حدث هذا تماما ، قال صابر جملته المأثورة ، وطاشت نظرة محمود فى اعتذار مبتور ، ولم يجد عادل أمامه سوى تسديد نظراته لوجه سمير السمين :

« بلاش هم يا دكتور ، ان شاالله ما عنهم شربوا ، أصلهم عيال ، نشربوا احنا قزازه سوا !! »

وكنت أعرف أن سمير لا يذوق الخمر مهما كان الأمر ، لذلك ، فما أن سمعت جملة عادل الاخيرة حتى أسرعت نحوهم لنجدته ... كان سمير يبدو حائرا متخبطا أمام نظرات عادل المستفزة ... أنا أعرف أصدقائى أيها السادة، أعرفهم جيدا ، وأعرف أن الدكتور سمير قد يقع فى مأزق لأقل كلمة أو استعداء يواجهه به انسان بلا سبب ... فعندما قال عادل ما قاله ، كان سمير يتلمظ بشفتيه حقا كمن يريد أن يشرب شيئا ، لكنه بالتأكيد لم يكن يريد أن يشرب بيره ... لذلك سرعان مافر بنظراته من عادل بحثا عنى . والتقت عيناه الحائرتان بوجهى وأنا أسرع نحوهم ، فأشار الى بيده قائلا :

« هات لى اسباتس يا براهيم ! »

ثم استدار نحو عادل ، وقال فى كلمات ممضوغه :

« أنا ... أنا ما اشربش بيره أبدا ! »

زمجر عادل على الفور وهو يسدد نحو الجميع نظرات ناريه سافرة الضيق ، ثم نادانى بغضب واضح :

« تعالى ياوله انت هنا ... هات لى قزازة بيره ... ان شاالله ماحد شرب ! »

قلت : « حاضر » وأنا أستدير عائدا الى المقهى ، غير أن عادل نادانى وكأنه تذكر شيئا ، عدت اليه لأجده يبتسم قائلا :

« بس تجيبها ساقعه ! »

ثم ضحك ...

لكن أحد لم يضحك معه ، فازدادت ضحكته علوا وهو يتمتم

بصوت عال واضح النبرات :

« يلعن أبو أمك ... واخد لى الحكايه جد قوى !! »

وبعدها — أيها السادة — بدأوا يدردشون من جديد . فعندما تبلغ الليلة ذروتها ، ويستنفذ كل منا ما عنده من كلام أو طاقة ، وعندما يزحف التعب والإجهاد الى العقول والاجساد ، كان لابد من الحديث عن شيء جديد ... لكن الغريب — أيها السادة — أن هذا الشيء الجديد ، كان لابد وأن يقودنا الى نفس الطريق ، ونفس الكلمات ، و ... وقد بدأت الدردشة فى تلك الليلة بكلمات راح كل منهم يدحرجها من بين شفتيه فى لامبالاه وكسل ، قد يعنيها ، لا أحد يدرى ، لكن الكلمات كانت تتساقط من شفاههم على أى حال وتسيل تحت أقدامهم كأنها بصاق ... وكان أول المتكلمين هو محمود ... فما أن وضعت زجاجة البيرة أمامهم ، وما أن فتحت سدادتها حتى قال :

« أنا عاوز أروّح ... »

ولاحقه صابر :

« يا سلام على النيل دلوقت يا ولاد ! »

وتتالى بعد ذلك الحديث ...

« احنا اتأخرنا فعلا ... »

« نيل أيه يا أستاذ صابر ، هو فيه أجمل من اسكندرية فى الشهر ده ؟! »

« حد يشرب معايا من القزازه دى ! »

« هى القهوة حاتشطب امتى ؟! »

« المندره ياوله المندره ... أنا لازم أصيف السنه دى فى المندره !!»
« حاتشرب القزازة لوحدك يا أستاذ عادل ، أنا ماعييش فلوس !! »
« اتأخرنا فعلا ... فعلا .. »

ولم يكن ممكنا أن أظل بجوارهم مستمعا لحديثهم ، فقد بدأ الانتعاش يسرى من جديد فى الأجساد والعقول ، وصفق الاسطى فاروق طالبا زجاجة جديدة ، وهبت من ناحية شارع الخليج نسمة قوية كنست تراب الدرب وحملته الى بعيد .. ونهض المعلم ممدوح يرتب الكراسى والموائد بعد أن خلا معظمها من الرواد ... ومضت دقائق لا تتعدى الخمس كنت خلالها أساعد المعلم ممدوح فى عمله ، بينما انتفخت عينا المعلم محمد وهو يقول :

« دحنا عمرنا ما سهرنا للساعة دى أبدا ! »
وسمعت بعدها صياح عادل يأتينى من الخارج مدويا غاضبا :
« ما هو لو فيه رقابة حقيقية ، ماكنش ده حصل ! »
وأيقنت أن الدائرة عادت الى الدوران من جديد ، فقد صاح فيه صابر :

« حاترجع وتقول لى رقابة تانى يا أخى ... هو انت مابتهمدش أبدا !! »

« طبعا لازم تبقى فيه رقابة تظبط الحرامية اللى زيه ! »
واستيقظ محمود من سرحته قائلا :
« فى المرحلة دى ياأستاذ عادل ، الرقابة تبقى صعب قوى ... وأصل الناس كلها حرامية يا أستاذ صابر ! »

سحبت كرسيا وجلست عليه بالقرب من التماثيلجية ، أحسست بالشوق اليهم . تمنيت أن أخلع الجلباب وأرتدى قميصى واجلس بينهم ... لم تفارق نظراتى طوال هذا الوقت هنية، وكانت سعدية قد انتهت من عملها وكومت الملابس فوق المائدة الكبيرة وأطفأت النار وجلست بجوار أبيها أمام الدكان ... أكلت أم هنية وأكل المعلم فتح الله لكن هنية لم تأكل ، كانت جلستى هذه المرة فى مواجهتهم تماما ، أحسست بالتعب ففردت ساق أمامى وخلعت حذائى فظهر شرابى فى لون طين الارض ، كان حديث التماثيلجية مرحا تتصاعد منه الضحكات بين الحين والحين ، تمنيت وقتها أن تكون لى ألف عين وألف أذن لأمتص الدرب باجمعه ، علا النقاش وامتد من جديد عند الضفة الأخرى لعطفة النيدى ، وتعالى صوت عادل وسرى صوت صابر ونقر الأذان صوت محمود فى تعليقاته المبتورة ، ولزم سمير الصمت ... وكان الاسطى رمضان يقول :
« على النعمه يا جدعان مانى مصدق اننا بكره حانروح ورشتنا خلاص ! »
كان لسانه متعلثا هذا حق ، لكنها كانت لعثمة نشوه لا لعثمه سكر ، واستبدل الاسطى عبد السلام وضع ساقيه وهو يقول مشعلا سيجارة من اخرى :
« أنا مش فاهم احنا كنا مستنين ايه لحد دلوقت ؟! »
« عارفين يا جدعان ، والنبى الاسطى برضه صعبان على ! »
« ما يصعبش عليك غالى ياسى فاروق ! »

« اوعى تنسى يا رمضان تفوت عل الصبيان بكره من النجمه ! »
« طيب وهو يعنى الاسطى احسن مننا فى أيه ؟ ... آهو كان زينا ... وزى هو ما عمل نعمل احنا »
قال الأسطى فاروق هذا ، ثم استدار فجأة نحوى واستطرد ضاحكا :
« ولا ايه يا أسطى ابراهيم ؟! »

انتفضت فى جلستى وقد فاجأنى فاروق بسؤاله ، كنت جالسا اذنى اليهم ووجهى الى بعيد ، غير انى على كل حال كنت اجلس جلسه المستمع المشترك فى الحديث وان لم اتكلم ... ولم يكن أمامى بعد سؤال الرجل سوى الاجابة عليه ... والغريب انى لم أشعر بالحرج ، والاغرب من ذلك ان حديثه لم يعطنى احساسا بالتطفل — وقد كنت !! — بل تحولت نحوى كل العيون ، واستدارت الرؤوس ، ووجدتنى أجلس معهم حقا ، قريبا منهم ، فى وسطهم ... وكانوا جميعا مشرقين سرت الدماء فى وجوههم ، ونفرت فى رقابهم عروق غليظة ، واسقط فى يدى ، ولم أدر ماذا أقول ... رحت اتمتم هاربا من السؤال : « ربنا يقدم اللى فيه الخير يا اسطى ! » ... لكنهم كانوا وكأنهم يجلسون معى منذ ساعات ، سرعان ما تحدثوا الى فى الامر ، وسرعان ما تشاوروا وتناقشوا واشركونى فى الحديث ووضعوا النقط فوق الحروف ، وكان أول المتحدثين هو الاسطى عبد السلام :
« تعالى افتح لك نصبه صغيره جنبنا واحنا ننفعك !! »
« تعيش يا اسطى ، أنا خدام ! »
« وفيها ايه دى ؟! »
« يا ريت ... »

« طب اسمع ، وليه يفتح نصبه ، ما ييجى معانا وينام فى الورشه وهو اللى ينضفها ، نجيب له باجور جاز وكام كباية وابريق وكنكه ... هو ينفعنا ، واحنا ننفعه !! »
« والنبى فكره ! »
« هى حلوه بس علشان ابو خليل فيها ! »
« الله يخليك يا اسطى فاروق ... تشكر ! »
« ايه رأيك يا براهيم بجد ؟! ... »
كانوا يتحدثون — أيها السادة — بألفة ومودة وكأن حديثهم موجه الى صديق عزيز يعرفونه ١٠ سنوات ، لم يكن الكلام مجرد كلام ، بل كان عرضا جديا رقيقا فية من التقدير بقدر ما فيه من الود ... رحت اضحك وأنا اردد كلمات بلا معنى ، لكن فيها ما يوحى بعدم الرفض فلم أكن أدرى ماذا اقول أو افعل ... راحوا يناقشون الأمر وكأنه حقيقة سوف تقع بعد ساعات ، وعد الاسطى عبد السلام بأن يفعلها فى الصباح ويشترى الوابور والاكواب وابريق الشاى والسكر والبن ... وعد بذلك ثم حددوا الكميات واتفقوا على مكان النصبة فى الورشة واشركونى فى الحديث وسألونى واجابوا عنى ، ثم حددوا ربحى وقالوا ان الباقى سيصرف فى تحسينات لابد من ادخالها على الجراج الذى سيستعملونه كورشة منذ الصباح ... »

عادت الحياة تدب فى عروق الدرب من جديد بنشاط ، تحرك البعض وطلب البعض شايا وارتفعت أصوات قزقزة اللب ، وابتسم المعلم فتح الله عندما التقت عيوننا ... وكانت هنية بجوار أمها وفى يدها لفافة صغيرة لم

تفض ... فى السماء نجوم بدت مع تقدم الليل أشد وضوحا ولمعانا ، فى النوافذ والشرفات خيالات كانت تتمايل فى رقة وهى تحكى فى أصوات خافتة ناعمة أشياء من الممكن أن تسمع ، عند طرف الدرب ارتمى على الارض ضوء دكان الحلوانية ، التقت عيناى بعينى سعدية فابتسمت ، ثم ارتدتا على الفور نحو هنية وكانت هى الأخرى تبتسم ... وسمعت محروس يقول من خلفى :

« براهيم يا براهيم يا نوارة الحته ! »

استدرت نحو محروس الذى كان واضحا أنه غفا غفوة ثم استيقظ ليواصل الحياة من جديد ، وجدت نفسى استقبل ابتسامته بابتسامة :

« مش تنام بقى يا معلم محروس ... انت باين عليك التعب ! »

وضحك محروس ... ضحك وهو يقترب منى ويضع يده فوق ذراعى ويتطلع الى وجهى بعينين حمراوين ، وتغيض الابتسامة من شفتيه ، تختفى لثوان يتمتم اثناءها :

« والله فيك الخير يا براهيم ، لكن بالك ... أنا مش مصدق انك قهوجى !! »

كنت طوال الدقائق التى مضت منذ اغمائى حتى تلك اللحظة أشعر وكأنى اعيش حياة نصفها حلم ونصفها حقيقة ، حتى قال محروس ما قاله ، فارتد الى وعيى ، وايقنت على الفور أن شيئا سيحدث ...

« وبعدها لك يا معلم محروس ... اتمسى وقول يا مسا ؟! »

كنت اقف وظهرى الى باب المقهى ووجهى الى الداخل ، على

يسارى المعلم محمد فى وقفته خلف النصبة صاحى العينين يتتبع بكل حواسه حركاتى واحاديثى والكلام الدائر من حولى هنا أو هناك ، معى أو خلف ظهرى ، كان يردد البصر بينى وبين محروس وهو يقول : « ايه فيه ايه ... فيه ايه ... ايه فيه ايه ! » ... كان المعلم محمد يريد أن يقول شيئا ، فقد راح الكلام يسيل من بين شفتيه بلا رابط ، وخلف محروس ، كان حسن لا يزال جالسا فوق مقعده فى مواجهة المدخل ... أما محروس ، فقد فاجأته كلماتى فراح يحملق فى وجهى دهشا ، واخذ يبتسم وهو يلوك فى فمه بضع كلمات لم يقلها !!

فقد حدث فى تلك اللحظة بالذات ، ما أوقف محروس ، وجعل المعلم محمد يزدرد ما يريد قوله ...

فى تلك الساعة من الليل ــ أيها السادة ــ حدث فى درب الجماميز ما ايقظ الركود وحقن الحياة بالحياة فدبت على أرض الدرب باقدام عملاقة ... كانت نظرات محروس قد انسحبت من فوق وجهى لترتد الى الخلف ... رأيته يحدق فى شىء عند باب المقهى ، وما كدت استدير نحو الباب ، حتى جلجل صوت الاسناوى فى الدرب كله :

« سلام عليكم ، يا ولاد الكلب ! »

هل تذكرون الاسناوى أيها السادة ...

كان قد اختفى فى الصباح واختفت معه سيرته ، اختفى طوال النهار ثم عاد فى تلك الساعة ليقول ما يقول وهو ينظر للجميع بعينين تطقان بالشرر ، كان فمه مفتوحا تبدو فيه السنتان الباقيتان وكأنهما نابا وحش

جائع سيفترس أحدا بعد قليل ... القى الاسناوى تحيته أيها السادة فساد الدرب كله صمت عميق ، صمت اصدقائى والتماثيلجية وعم فتح الله والمعلم كامل ، حتى الراديو كف عن الاذاعة فى تلك اللحظة ... وبدا أن الدنيا كلها تقف احتراما للعجوز وحدادا على حاله ...

ساد الصمت ... ورحنا جميعا ننتظر ما يمكن أن يحدث بعد ذلك فى توجس !

١٦ ــ لن أنسى ماحييت منظر الاسناوى فى تلك اللحظات ، كان منظره غريبا ... ولا أكون مغاليا ــ أيها السادة ــ لو قلت لكم أن منظره كان بشعا !!

رأيته عند مدخل المقهى كعود حطب جف وقدم حتى ليخيل للناظر اليه أن لمسة يد كافية لأن تحطمه ، صف الكتب لا يزال عالقا بذراعه ممتدا من كفه الى ما تحت ابطه بقليل ، وكان جلبابه القذر قد ازداد اتساخا وانتشرت عليه بقع العرق فى دوائر سوداء اللون ... ورغم أن الجو كان لطيفا والحرارة قد خفت منذ ساعات ، الا أن وجه الاسناوى كان محرقاً يسيل منه العرق بغزارة شديدة ... وكانت شفتاه باهتتين جافتين شديدتى الجفاف ، حتى ليخيل للانسان أنهما قطعتا أرض أهلكهما العطش فتشققتا .

« ادينى ميه يااااد يا ٓبراهيم ! »

كان صوته مشروخا صدئا تكاد نبراته أن تتحطم من وطأة الكلمات ... أسرعت الى الصندوق وبحثت عن آخر قطعة ثلج فيه حتى

وجدتها وكانت تائهة فى قطعة الخيش التى تغطى الزجاجات ... غسلت الكوب ووضعت فيه قطعة الثلج وملأته بالمياه وعدت به الى الاسناوى الذى كان لا يزال جامدا فى مكانه لم يتحرك ولم يتزحزح .. انتاب الدرب صمت غريب ، والتوت نحوه كل الاعناق ... وتعلقت به عيون الناس وكان هو ينظر الى بعيد ... تناول منى كوب المياه بيمناه ورفعه الى شفتيه كالسهم دون أن ينظر الىّ ، وراح يمتص المياه على مهل ـــ قطرة قطرة ـــ وفى بطء شديد وهدوء وبصوت منغم واضح ... ورحت أرقب تفاحة آدم فى عنقه وهى ترتفع وتنخفض فى نظام رتيب ، كان العنق نحيلا رقيق الجلد حتى خيل الى أنى أرى المياه تنزلق منه الى الجوف الخرب المتهاوى أمامى ... أعاد الى الاسناوى كوب المياه وهو يبلل شفتيه بطرف لسانه ، ثم يمتصهما من جديد .. قلت له : « هنيا يا معلم اسناوى » ... فلم يرد التحية واتجه الى الداخل ناظرا أمامه ملقيا بصف الكتب فوق مقعد ، وبجسده فوق مقعد مجاور ثم سكن تماما ولم يعد يتحرك !

أحسست بالدوار مرة أخرى ... غير أن أحساسى به هذه المرة كان يختلف ، كنت أشعر وكأنى أغادر منطقة احساسى الى منطقة أخرى لاحساس جديد ... واعذرونى ـــ أيها السادة ـــ فأنا هنا أحاول ترتيب الاحداث وتنميقها حتى تصل اليكم واضحة ، حتى تنقل لكم وجهة نظرى ، لكنى فى النهاية وبعد كثير من الجهد ... وجدت أن هذا من رابع المستحيلات فلست أطلب منكم هنا أن تعرفوا ماذا أريد أن أقول ، كل ما أطلبه أن تحسوا بتلك اللحظات الرهيبة التى عشتها فى تلك الليلة ..

فمنذ اللحظة التى أغمى على فيها وانتابنى ذلك الدوار ، تداخلت

الاشياء فى ذهنى وماعت فى ذكراتى فذابت ملامحها الحقيقية وتحولت الى شىء هلامى غير محدد ، كنت أحس فقط ولا أستطيع أن أعى ، كنت كمن رتب نفسه وحياته ولم يعد هناك مجال للتأمل أو التفكير أو التردد ، كنت أشعر بحبى لهنية وللناس فى الدرب وكأنه مستقبلى وحاضرى وحياتى جميعها ، فعشت تلك اللحظات بنفس مستسلمة بل وراضية ... وكما كان هذا الدوار صدمة خلطت الاحداث بعضها بالبعض ومزجتها باحساسى الجديد ، كذلك كان حضور الاسناوى فى تلك الساعة صدمة أخرى ردت الى الوعى وأعادت التوازن الى ذهنى لفترة لم تطل كثيرا !!

جعلنى وجه الاسناوى ونظراته والتيه البادى فى عينيه هذا أشعر وكأنى ارتكبت جرما فظيعا ، وكأنى السبب فى كل هذا الذى يعانيه الاسناوى ... كنت أقف فى منتصف المقهى بلا عمل ، أحملق فى الرجل كالأبله ... ماذا حدث ؟! ... وما الذى يحدث ؟! ... حتى الأصوات فى الخارج ، أصوات التماثيلجية وأصدقائى الأربعة الذين حلت لهم الجلسة واستعذبوا هواء عطفة النيدى ، حتى هؤلاء كفت أحاديثهم وعم الدرب صمت عميق !

ولم يكن أمامى سوى طريق واحد ... صحت بصوت عال مدو وكأنى أدعو الجميع للحديث :

« واحد شاى وكرسى دخان على البورى للمعلم الاسناوى وصلحه ! »

وتحرك المعلم محمد من مكانه ليلبى الطلبات ، لكن الاسناوى لاحقه مزمجرا :

« مش عايز !! »

قالها وعيناه معلقتان بالسقف وكأنهما تسمرتا فى مكان فيه ... قالها بصوت هادىء أجش عنيف النبرات دون أن تتحرك حتى شفتاه ، فكل شىء فيه ظل جامدا بلا حراك ... مال صف الكتب وانحنى ، فامتدت يد الاسناوى الى رأس الصف وكأنها تربت على ابن عزيز ... تبادلت النظرات مع المعلم محمد ، ثم اقتربت من البنك وأنا أقول بصوت حاولت جاهدا أن أكسبه صفة المرح :

« جرى ايه يا معلم محمد ؟ ... فين الطلبات ؟! »

وهنا زمجر الاسناوى غاضبا :

« قلت مش عايز ! »

« جرى ايه يا اسناوى ... ما توحد الله امال ! »

وقال المعلم محمد بصوت خفيض :

« سيبه دلوقت ، باين عليه ما استفتحش لسه ! »

كنا — أيها السادة — بعد منتصف الليل ، وكان الاسناوى جالسا وحقيقة الامر تتضح لذهنى كجمرة من نار ، فصحت بانفعال :

« نزل الطلبات على حسابى يا جدع ... واد يا حسن ! »

تحرك الاسناوى من مكانه ، أو تحركت عيناه فقط وانزلقتا فى محجريهما نحوى ، فرأيت فيهما غماما ليس دموعا ، وانما هو شىء كالندى يرطب التهاب الحدقتين الحمراوين .

« حاتعمل ايه يااااد ! ... »

« حانتعشى يا اسناوى ! »

فاختلج الاسناوى ... اختلج كله مرة واحدة ، وهب واقفا كفرع جاف تتلاعب به يد لاهية ...

« ومين قال لك يابن ال ... انى عاوز أتعشى !؟ »

« طب اشرب الشاى وكرسى المعسل ؟! »

« قلت مش عايز ! »

« يعنى أنا مش قد المقام يا معلم ؟! »

كنت أحاول أن أسترضيه بشتى الطرق ... لكنه لم يقبل .

« لأ ... مانتاش قد المقام يا روح أمك ... حاتبقشش على يابن الأ ... !! »

هب المعلم ممدوح من مكانه على الرصيف المقابل ، وتطلع المعلم فتح الله من خلف صفحات الكتاب الذى كان يقلبه ، وصاح المعلم محمد من خلف البنك :

« ما تبطل طولة لسان وقلة أدب أمال ، هو الجدع غلط معاك فى ايه ؟! »

زمجر الاسناوى وهو يطوح بذراعه فى الهواء :

« انت بتحامى له يابن أبو النجا ؟! ... طب انت اديله حقه اللى واكله عليه ! »

وصل ممدوح الى المقهى :

« ايه ايه ايه ... فيه ايه .. بلاش هيصه فى المحل ! »

ورد المعلم محمد :

« بياخد حقه وزياده شويه ، هو كان اشتكى لك ... آهو راجل وملو هدومه قدامك أهه ... مش بيعزم عليك ... كده والا لأ ؟! »

صاح المعلم فتح الله دون أن يتحرك من مكانه ، صاح ببساطة وكأنه يتنفس :

« الطيب أحسن يا اسناوى ... ورينى معاك ايه وأنا أستفتحك ! »

وتحول صياح الاسناوى الى صراخ نائح مغيظ :

« بتجبّى على يا فتح الله يابن زنوبه ؟!»

ولأول مرة منذ طلع النهار ، سمع الدرب صوت أم هنية :

« سيبه يابو هنية ، ده باين عليه شارب ! »

« قلت مش عايز يا ولاد الكلب ، هو بالعافيه ؟! »

« ما تبطل طولة لسان بقى أمال ... الله ! »

« صنايعى جعر زى دهه يعزم على ؟! »

« حقك على يا معلم اسناوى ... حقك على ! »

« انت يا واد تعرف مين الاسناوى اللى بتعزم عليه ده ؟! ... أنا مش قلت لك تسأل علىّ من الصبح ... أنا معلم دول كلهم ... دول كلهم كانوا صبيانى ، لحم كتافهم من خيرى ... لكن اسمى برضه الاسناوى ... ما استفتحتش زى بعضه ، انما أنا الاسناوى ... أنا جبتها من مشرقها لمغربها ، من المعادى للجيزة لمصر الجديدة ، ولسه فيه حيل أمشى لاسكندرية ... وماله ، جدعنه ، أنا الاسناوى ... فاهمين يا ولاد الزنا ؟! ... أنا الاسناوى ... بتلعبوا بالالوفات صحيح وأنا لابس جلابية مرقعه ، أنما نزهى وجدع ، وبرضه اللى فى جيبى مش بتاعى ، ولسه برضه

الاسناوى ... الاسناوى يا ولاد الزنا ... الاسنا .. أنا الاسن ... الاسن ... أنا ال ... ... »

كان صوته يتهدج بمرارة أحسست طعمها فى حلقى ، وجسده يترنح وكأن ضربات خفيفة تنهال عليه من حيث لا يدرى ، وصياحه كصراخ المستغيث ، ولا أحد مكث فى مكانه بعد ذلك ، فقد خرج الاسناوى الى رصيف المقهى وراح يتحدث فى الناس الذين التفوا حوله وتجمعوا فى دائرة واسعة من الدرب ، أضيئت أنوار نوافذ كانت مطفأة ، وفتحت شرفات كانت مغلقة ، وأطلت على الدرب رؤوس كان النوم يداعي عيونها ... وصوت الاسناوى يجلجل ويدوى فى أنحاء الدرب فى تدفق وسرعة ، ثم ، ثم اذ بالصوت يختنق فجأة ، وتتعثر الكلمات فى عصبية الشفتين :

« أنا ... الاسناوى يا ولاد الكلاب ... برضه نزهى .. صنايعى جعر يعشى الاسناوى ... آخر زمن ... أنا ... الاسنا ... وى ... ملعو ... ن . أ . ابو أهاليكم يا ولاد ال يا ولاد ال ... ال ... ال .. »

ولا أدرى ولا أحد يدرى ما الذى قاله الاسناوى بعد ذلك ، فلم يعد الكلام مهما ، كان ما يفعله الاسناوى أهم بكثير ، فقد انفلت فجأة عائدا الى الداخل ... انقض على صف الكتب ، وحمله تحت ذراعه ، ثم انطلق مغادرا المقهى والدرب معا وهو يتمتم بعشرات الكلمات الغاضبة المنفعلة ، كان يذوب فى الظلام مترنحا ، وكأنه شرب أطنانا من الخمر ، أو تلقى آلاف الضربات فوق أم رأسه ... ثم اختفى بعد ظلال الجامع المعتمه ، وصوته المزبد يخفت ويخفت حتى يذوب وسط صمت الليل وسكونه الذى ساد الدرب من جديد .

لم تدم لحظات الصمت طويلا ... فسرعان ما أطلق المعلم كامل ضحكة خجلى وهو ينهض من مكانه مستديرا نحو مكتبته قائلا بصوت عال وكأنه يدعو الجميع الى مشاركته رأيه :

« الله يخرب بيتك يا اسناوى ... هو انت كل يوم لك حدوته ؟! »

ضحك البعض مستجيبا ، وتشاغل البعض بأشياء أخرى ... لكن هذا الكلام لم يعجب صديقى عادل الذى انفجر صوته فى الدرب هذه المرة وكأنه يخطب فى الناس أجمعين :

« اتفضل يا سيدى ، آدى الشعب شوف حاله ازاى ؟ ... والبيه اللى انت بتدافع عنه عمال يسرق بالألوفات ! »

فرد عليه المعلم فتح الله من مكانه :

« أبدا يابيه ... ده هوه اللى كده ! »

« كده ازاى ... فيه حاجة اسمها هوه اللّى كده ؟ ... مفيش حاجة أسمها هوه اللى كده !! »

وصاح ممدوح ضاحكا :

« هو الاسناوى ده يبقى الشعب ؟! ... كان زمانها خربت من زمان ! »

وهمس الاسطى فاروق لأصحابه :

« فاكرين يا جدعان اللى عمله الاسناوى الجمعه اللى فاتت ؟ »

وتململت أم هنية فى جلستها ، ومالت على ابنتها وتهامست معها ، وارتفع صوتها للمرة الثانية فى ذلك اليوم ، وكانت تنادينى :

« هات لى كباية شاى يا براهيم والنبى ! »

لم أتحرك من مكانى ولم ألب لأم هنية ما طلبت ، تحرك حسن وانفلت بعد الصينية وكوب الشاى لها ... وعاد الحال الى ما كان عليه بعد ذلك ... أسند محروس رأسه الى كفه وراح يتطلع الى بعينين باسمتين ، وكنت لا أزال فى وقفتى أرقب الظلام حيث اختفى الاسناوى ، كان شىء يقبض قلبى ويحقنه بالحزن ، ولا يزال منظر الاسناوى — أيها السادة — حتى هذه اللحظات ماثلا فى ذهنى وهو يغادر الدرب كقشة تتلاعب بها رياح عاتية ، وكلما تذكرت ذلك المنظر أشعر وكأن قلبى سينخلع ... شىء واحد كنت متأكدا منه فى تلك اللحظات ، ان الاسناوى لن يفطر فى الصباح ، لن يسيل العرق من جبينه ليختلط باللعاب ثم تسقط قطراته فوق أقراص الطعمية ... والذى حز فى نفسى وأدماها أكثر ، أن الجميع كانوا بعد دقائق قليلة قد نسوه وغرقوا فى أحاديثهم مرة أخرى .

* * *

« ايه يا براهيم ... مالك واقف كده ؟! »

انتفضت وأنا أستدير نحو المعلم محمد ، فى نفس اللحظة التى كانت هنية تترك فيها مكانها بجوار أمها لتغادر الدرب من طرفه القريب ، الطرف الذى ينبع من شارع الخليج ... فعدتُ اليها ببصرى وتعلقت بها روحى وكأن بين يدها خلاصى من عذابات مجهولة ... أشارت الى من طرف خفى أن أتبعها فلم أصدق ... ظللت فى مكانى ألاحقها ببصرى ، كانت تبتعد بسرعة وفى يدها لفافة صغيرة ...

هل هذا معقول ؟!

فى مثل هذا الوقت ؟!

لابد أن الجميع سيلحظون !

لابد انهم سيشكون ثم يتحققون ويوقنون ان بينى وبين هنية شيئا ...

لكننى فوجئت — أيها السادة — أن انصرافها كان يبدو لجميع من فى الدرب شيئا طبيعيا فلم يعره أحدهم اهتماما ولم يلتفت اليه مخلوق ... الا محروس ... ظللت حائر أمام نظرات محروس وابتسامته وطاقيته المائلة على جبهته فى عياقة العالم ببواطن الأمور ، وكانت هنية قد ابتعدت وأخذت تذوب فى سحابات النور عند مدخل الدرب ، ورأيتها هناك ، وقبل أن تنثنى الى اليسار التفتت نحوى وأشارت الى برأسها أن : اتبعنى ... وكانت الاشارة هذه المرة واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

وعاد المعلم محمد يردد فى أذنى :

« مالك يا براهيم ؟! ... ابراهيم ، مالك ... ما ترد يا جدع ! »

ولم يحتج الامر منى بعد ذلك — أيها السادة — الى مجهود يذكر ، كنت كالمحترف أتصرف بحكم الطبيعة والعادة ، فرغم ابتسامة محروس التى كانت تنطق : انى أعرف ، انى أرى .. رغم ذلك وضعت يدى فوق رأسى وأغمضت عينى قائلا :

« أنا طالع أشم الهوا فى شارع الخليج ! »

« طب وماله ... برضه يصح ! »

قالها المعلم محمد على الفور ، لكنه أردف بلهفة :

« هى الفلوس معاك ؟! »

وكان يعلم بطبيعة الحال أن النقود معى ، كما كان محروس يعلم هو الآخر انى ذاهب الى هنية ... فلم أرد ، بل أسرعت مغادرا مكانى ، ملقيا بنفسى فى تيار الهواء الذى كان يندفع من ناحية شارع الخليج ليجفف عرقى ... وكنت أسرع الخطى فقد كانت هنية قد اختفت عن عينى !

١٧ — ايها الساده .. أرجو أن تغفروا لي أن كنت قد أطلت عليكم قليلا ... وعلى كل فقد شارفنا على نهاية الطريق ، ولم يعد لدى الكثير لأقوله .

انى أتردد الآن وأنا أخوض فى سيرة تلك اللحظات والدقائق التى تلت مغادرتى للدرب مرة ثانية وراء هنية ، أتردد وأحجم ويكاد قلمى أن يحيد بى عن الطريق لأنى أشعر وكأن الكلمات تتحول إلى حبل غليظ يشتد التفافه حول عنقى كلمة بعد كلمة ... تماما كما كانت قدماى تحيدان عن الطريق وأنا أسعى خلف هنية فى تلك الليلة ...

بدا شارع الخليج فى تلك الساعة من الليل وكأنه لوحة تغطيها غلالة شفافة داكنة اللون ... كل شىء فيه كان يبدو رقيقا ناعما ... بقايا الناس الذين كان الشارع يزدحم بهم منذ دقائق وساعات ولم يبق منهم فى تلك الساعة سوى نفر قليل تفرق هنا وهناك ، امتلأ الطريق بأوراق الخس وقشر الترمس واللب وتلك الفوضى التى تحمل روح الجماعة ومرحها .... كان الهدوء هو طابع الحياة فى شارع الخليج ، حتى ضجيج عجلات الترام

كنت أسمعه وكأن للترام الخالى من الناس عجلات من القطيفة تسير بلا صوت !

رأيت هنية على البعد وهى تنثنى مبتعدة عن الدرب ملقية بنفسها وسط الحديقة الصغيرة التى تتوسط الشارع بطوله ،ظللت أسير خلفها ولم نبتعد كثيرا ، توقفت هنية فى بقعة كانت كغيرها من الحديقة تحمل آثار ناس كانوا هنا من قبل ، وحولنا كانت الحلقات متناثرة هنا وهناك ... رأيت النسوة يفرشن الملاءات فوق العشب الأخضر وقد وضعن الطعام فى الوسط ، بينما عربات الشاى على الرصيف تحمل للزبائن أكوابا يتصاعد منها البخار . الأطفال والأزواج يحيطون بالمائدة التى كانت تزينها غالبا أوراق الفجل ورءوسه الكبيرة ، القلل متناثرة على الأرض وفوق عربات بائعى الترمس الذين كانوا يبيعون للشارين وينادون على الباقين ، هذا ينادى على ببسى والآخر ينادى على بسكال ... كل دائرة بجوارها راديو ترانزستور يحتل مكانه غالبا بجوار الأب وصدى الأغانى يتردد فى كل مكان ... وكانت هنية تقف وبينى وبينها عدة خطوات ... فما الذى أريده منها ؟ ... ما الذى أريده ؟!

فاجأنى السؤال وأخذنى على غرة فارتبكت قدماى وحادتا عن المسير ... كانت هنية تقف فى انتظارى وعلى وجهها ابتسامة الواثق المطمئن ، فى يدها لفافة تحوى طعاما بلا شك ولا داعى لتصنع الغفلة ... أخذت الطعام من أمها فلابد أن الأم تعرف كل شىء ... وغادرت المكتبة أمام أبيها ، فلابد أن الأب أيضا يعرف الكثير أو على الأقل يباركه ، تماما كما يعرف محروس كل شىء ويباركه ... فالى أين أنا ذاهب ؟! ... وما الذى

أريده من هنية بالتحديد ؟ ... ما الذى أريده منها ؟! ..

أنوار الشارع تسبح فى ظلامه كفراشات مضيئة ، ووسط الطريق أمام الناس كانت هنية تنتظر ، وكنت أسير نحوها فلم أكن أستطيع التوقف أو التراجع ، اقتربت منها وفى صدرى خوف ولد فجأة ... غير أنه كان لابد من الحديث فقلت :

« مساء الخير يا هنية ! »

« يمسيك بالنور ياسى براهيم ، أنا جايبه لك لقمة ! »

مدت لى يدها باللفافة فلم آخذها ، واقتحم السؤال ذهنى اقتحاما من جديد : ماذا أريد من هنية ؟ ... ووجدت نفسى أجيب على كلامها :

« وليه التعب ده يا هنية ؟ ... مانا رايح أتعشى بعد شويه ! »

نظرت احدى النسوة نحونا متطلعة ، فتبادلت هنية معى نظرة سريعة وابتسم كلانا ثم جلسنا على الفور فوق العشب الرطب ... وكانت بيننا لفافة الطعام !!

ذهب الخوف والقلق واختفى التساؤل من ذهنى ... وأحسست بالراحة !

هكذا فجأة وبلا مقدمات ... ولا تسألونى كيف فليس عندى الجواب ، وان كان عندى فلست أعرفه ... فى لحظة التقت فيها عينى بعينى هنية انتقل احساسى من منطقة الى منطقة أخرى ، فى لحظة قررت أن أقول الصدق لهنية وليحدث بعد ذلك ما يحدث ... فى لحظة قررت ألا

أترك هنية ، أبدا لا أتركها ... ليغضب أصدقائى ويتبرأ منى أهلى وليصمنى الناس بالجنون ، ليحدث أى شىء ... لكنى لن أترك هنية بعد الآن ، لن أتركها ، فهى ملاذى الوحيد ، هى طوق النجاة الذى سينتشلنى مما كنت أتردى فيه .

هكذاا أحسست بالراحة !

راحة لم أحسها فى حياتى من قبل ، عظامى تتفكك وتستريح مفاصلى وترتخى كل أعصابى ... الهواء يداعب ساقىّ نصف العاريتين ، وأخلع الحذاء فيلسع الهواء قدمىّ المبتلتين بالعرق ... وتسرى الراحة الى جسدى بلذة تفوق كل لذة ... وجهى تغسله برفق نسمة الليل ، فلم أتحدث فى البداية ولم تتحدث هنية ... فقط ، كانت نظراتنا تلتقى بين الحين والحين لتقول : أهلا ، بابتسامة نصفها خجل والنصف الباقى سعادة ... كنت أحس باحساس الذى تتغير نظرته للأشياء تماما ... كنت كالمذنب الذى تاب ، فغزت قلبه السعادة وغمرته باليقين ...

* * *

رحت اتطلع حولى الى كل شىء ... احساس هو كالحلم فى حد ذاته — أيها السادة — ذلك الاحساس الذى كنت أحسه فى تلك اللحظات ، كنت أملس على الأشياء والناس بنظراتى وكأنى أريد أن احتضنهم جميعا وأضمهم الى صدرى ... على مسافة منا رجل وامرأة وبينهما طفل وراديو ترانزستور ، وكانت المرأة تختلس النظر نحونا بين الحين والحين وعلى شفتيها ابتسامة ، والرجل ينظر الى بعيد حينا ويعبث فى مفتاح الراديو حينا آخر ليغير المحطة ، والطفل يحجل بجوارنا ثم يقترب منا حتى يلتصق بى

ويضع يده فوق كتفى ... وأنا ــ أيها السادة ــ لم أحب الأطفال من قبل بالقدر الكافى ، سموه مرضا أو نقصا أو أى شىء آخر فهذه هى الحقيقة ، أنا لم أحب الأطفال من قبل كما يجب ... كنت أدهش من الناس الذين يسعدون ويضحكون اذا بال على أحدهم طفل ، كنت أقول عن هؤلاء أنهم مقرفون ، واذا اقترب منى طفل ليس نظيفا كل النظافة ، كان الغثيان يصيبنى ... لكن شيئا من هذا لم يحدث عندما اقترب منى ذلك الطفل فى تلك الليلة ووضع يده على كتفى ... كان قذرا تمرغ وجهه فى التراب وسال على التراب عرقه ولعابه فتحول الى طين جففه هواء الليل ... ثوبه فى لون الارض ، وطرف الثوب مبتل بسائل لم أدر ما هو لكن وجه الطفل بالرغم من ذلك كان جميلا ، أنفه صغير دقيق ، العينان ضيقتان لكن فيهما صفاء غريب ، والشعر ناعم أسود يتهدل فوق طرف الجبهة فى خصلة قصت بغير دراية أو عناية ، وأصابع اليد قذرة ، لكنها دقيقة ورقيقة وكأنها قطعة سمسمية ... وكان الطفل يبتسم !

لاتؤاخذونى ــ أيها السادة ــ ان كنت قد شططت فى الحديث ، وأنا فى الحقيقة لست أدرى لماذا أصف لكم الطفل كل هذا الوصف المسهب الذى قد يكون فى الغالب مملا ، غير انى لازلت أذكر وجهه ، وأذكر تلك التفاصيل وكأنها حفرت فى ذهنى لتبقى منقوشة عليه حتى الأبد ... التقت نظراتى فى تلك اللحظات بنظرات هنية ، وكان عناقا ملتهبا ... فرت نظراتها من نظراتى أحيانا ، وتثنت بدلال ، لكنها سرعان ما عادت لترتمى فى عينى من جديد ، ونتوه عن كل شىء ... ثم أفقنا على صوت الأم وهى تصيح من مكانها منادية طفلها :

« مرزوق ... وله ... »

لم يكن فى ندائها شىء يدعو حقا ، كان نداء رتيبا كأنه يصدر عن عادة ... ولابد أن المرأة نظرت الى هنية ، لابد أن كلتيهما ابتسمت للأخرى فقد قالت هنية بصوت خافت خجول :

« ربنا يخلى ! »

وسمعت المرأة تقول وهى تلوك شيئا فى فمها أو تمضغه :

« عقبال عدلك يا شابه ! »

خفضت هنية وجهها وراحت تقتلع الاعشاب من الارض فى عصبية ... وطال الصمت لثوان ، وكان مرزوق قد جلس على ركبتى وراح يتطلع الى وجهى بعينيه الصغيرتين ... ووجدت نفسى أبتسم وأنا أميل نحو هنية هامسا :

« ساكته ليه يا هنية ؟ »

وازدادت حركة أصابعها سرعة وعصبية ، ثم دفعت بلفافة الطعام نحوى وهى تتمتم :

« ماتاكل بقى ياسى براهيم !

كنت جائعا فمددت يدى الى الورقة وفضضتها ، رأيت بالداخل أقراص طعمية وقطعة جبن وأوراق الفجل الطرية تنتشر فوق رغيفين لازال دفؤهما يسرى فى اليد ...

« أنا مش حاكل لوحدى يا هنية ! »

قلتها باسما وأنا أرفع اليها عينى ، فقد كنت واثقا من أنها لم تتناول

طعام عشائها ... كنت وكأنى أرى وجهى فى المرآه ، أراه وجها سعيدا تنطق ملامحه بآلاف المعانى الخفية التى تعلن عن نفسها دون مواراة أو خجل ... بعد لحظات سأعترف لهنية بكل شىء ، سأخلع كذبى وأرتدى الصدق فلا شىء عندى لأخفيه أو أتستر عليه ... فقط ، كنت أنتظر اللحظة المناسبة ... عدت أنظر الى هنية وأنا أدعوها للطعام ، فقالت وهى تدارى عنى عينيها :

« أنا أكلت وشبعت والحمد لله ... بس انت كل علشان تصلب عودك ! »

وكذلك كان وجهها سعيدا هى الأخرى ... كم أحب أن أصف لكم هذا الوجه أيها السادة ... كم أحب لكنى عاجز فليست فى الوجه تلك الملاحة التى يكتبون عنها فى الكتب ، وليس فيه ذلك الجمال الذى تعودت أن أسميه جمالا منذ أن عرفت لجمال المرأة معنى ... لم يكن فى وجه هنية شىء من ذلك . كانت ملامحه متسقة مرتاحة وكأن كل قطعة منها تفسح الطريق لباقى التقاطيع ، كان وجهها شبعان لاطمع فيه ولا غاية يهدف اليها ولا دور يريد أن يمثله ... كان وجه هنية ـــ أيها السادة ـــ غريبا ... كأنه خلق ليبتسم .. فقط .

« حاكل لوحدى يا هنية ؟! »

وازدادت ابتسامتها اتساعا ، ومدت يدها الى أحد الرغيفين ثم قسمته على نصفين وهى تقول :

« أنا حاكل معاك ، علشان يبقى عيش وملح ! »

وبدأت اكل وكأنى أمضغ الشهد ، مر بنا صبى يبيع المثلجات

فسألتها عما تشرب فقالت : « اللى تشربه انت ! » ... وفتح الصبى الزجاجتين ومياه الثلج الباردة تتساقط منهما ... ثم مضى عنا وهو يواصل نداءه ... وحانت تلك اللحظة ، قررت فجأة أن ألقى بنفسى فى قلب الحقيقة وأن أعترف لهنية فى تلك اللحظة بالذات ، أن أذكر كل شىء ... تمليت فى وجهها طويلا فأحسست بالحب ينبض ليغمر كل حياتى ، شربت جرعة من زجاجتى ثم تمتمت :

« بالك يا هنية !! »

رفعت الى عينين صافيتين يفيض منهما الحب فى نظرات حانية ... الكلمات على لسانى لأقول الحقيقة لأول مرة ، أقولها بلا لبس ولا ابهام ... لكنى لم أتحدث ، الغريب أنى لم اتحدث ولم أقل حتى كلمة واحدة ، شلّ لسانى خوف مفاجىء فالتصق بسقف فمى وأبى أن يتحرك ... طال انتظار هنية وأنا على حالى ، فتساءلت عما أريد قوله ، وكان لابد أن أقول شيئا ، أى شىء ،الا الصدق... وكنت أهرب من نظراتها وأنا أقول :

« الطراوة حلوة قوى يا هنية ! »

نفثت ملامحها علامات شك واضح ، لكنها ابتسمت وهى تعود لمواصلة الطعام ... لماذا أرفض عليها لحظاتها ؟ ... لماذ أفاجئها وهى فى قمة سعادتها بأنى كاذب ومخادع ؟ ... ثم ماذا أقول لها ؟! ... هل أقول لها أنى كذاب وانى .. ...

وعلى كل حال ـــ أيها السادة ـــ فقد رحت آكل وأطعم الطفل معى ، كانت مياه ثوبه المبتل قد سرت الى جلبابى وفخذى لكنى كنت سعيدا ... راحت هنية تمضغ ببطء وعيناها على الأرض حينا وبين عينى

حينا آخر ... ورحت أداعب الطفل تارة ، وتتساقط نظراتى أمام نظراتها كلما التقت العيون ... لعلع صوت مطرب من الراديو بأغنية سرت فى جو الشارع سابحة فى هدوئه ، فأحسست وكأنى أسمع الموسيقى لأول مرة ، كانت الأنغام تتسلل الى أعصابى لتخدرها ، أخذت أرندن مع الأغنية فى نشوة وأطعم الطفل وأقبلة فتتلوث شفتاى بتراب وجهه ...

ومرت لحظات لم تطل كثيرا ، كنت موقنا من أنى سأقول الحقيقة لهنية مهما طال بنا الوقت ، كنت موقنا انى خجل بعض الشىء ولا أكثر من ذلك ، وأن كان الأمر يحتاج لقليل من الشجاعة فلابد أن أملكها .. أليس من يملك الشجاعة من أجل الكذب ، يستطيع أن يمارسها ليقول الصدق وقتما يشاء ؟! ... الا يبدو هذا الامر منطقيا وغير قابل للجدل ؟

« مش تخلى بالك من نفسك ياسى ابراهيم ؟! »

سرى الىّ صوتها وسط ضباب الليل النادى وكأنه حلم ، فقلت بصوت خافت :

« أكل العيش يا هنية ... أعمل ايه يعنى ؟! »

« الا انت كنت بتشتغل براد قبل كده ؟ ... صنايعى يعنى ؟! »

ضحكت هنية ، وضحكت معها وهممت بأن أقول لها ما هو عملى الحقيقى ومن أنا ... كنت موقنا وأنا أضحك أن حديثى مع الرجل الذى استوقفنى فى الصباح قد لف الدرب من أوله حتى آخره ووصل الى كل أذن ... رحت أتحسس الطريق الى الحقيقة فى رقة حتى لا تفزع هنية ، قلت وأنا أحشو فمى بورقة فجل أحاطتها لقمة طرية :

« مين اللى قالك يا هنية ؟ »

« الدرب كله عارف ... ما انت قايل للراجل الصبح ؟ »

ابتسمت قائلا :

« بالك يا هنية ... أنا كنت فاكره مخبر ... شكله كده زى اللى .. .. .. »

وأطلقت هنية ضحكة صدحت فى جو الشارع الهادىء وهى تقول :

« اسم الله عليك ياسى براهيم ، ماهو مخبر ، انما من الحته يعنى ! »

وضحكت معها ...

ضحكت وضحكت حتى دمعت عيناى ، وكانت هنية تضحك هى الأخرى فى جذل وسعادة ... وكلما توقفنا عن الضحك لحظة ، تقابلت نظراتنا وانفجرنا نضحك من جديد ، وضحك معنا مرزوق ، ضحك الصغير وغرد صوته الرقيق من حولنا ، وجدت نفسى أحتضنه وأضمه الى صدرى ، وجدت نفسى أقبله والدموع تسح من عينى من فرط الضحك والسعادة ، كنت سعيدا أيها السادة سعيدا ... ظللت أضحك حتى تعبت من الضحك فتوقفت ، وران الصمت مرة واحدة ... وخلال الصمت كنت أنزلق تدريجيا لأقف أمام حقيقة غريبة ... كنت أتذكر ما حدث لى مع هذا الرجل فى الصباح وكأنه شىء وقع منذ شهور طويلة ، كأن دهرا قد انقضى منذ استوقفنى فى الصباح حتى تلك اللحظة وليس يوما واحدا : « سى براهيم » ... لم يغب وجه الرجل عن ذهنى ولم يطمس مرور الزمن ملامحه فقد كنت أتذكرها بوضوح ، لكننى كنت أشعر وكأن أجيالا قد انصرمت منذ رأيته لآخر مرة : « سى براهيم » ... شىء غريب

هذا الذى كان يحدث لى ، أأنا حقا لم أعرف هنية الا منذ ساعات ؟! ... كيف اذن نقيس عمر عواطفنا بالزمن وأنا على يقين من أنى أحبها منذ سنوات ؟ : « سى براهيم ! » ... هل من الممكن أن يولد الحب — حقا — بهذه السرعة ؟ : « سى براهيم » ... انى أحب : « سى براهيم ! »انى أحب : « سى براهيم » ... هنية كما « براهيم .. الله !! » ... لم أحب : « براهيم !!! » ... من قبل : « براهيم براهيم .. الله .. مالك ياسى براهيم كفى الله الشر ؟! »

كانت يدها تهز رسغى بعنف ، لم تكن يدا رقيقة أو صغيرة كأيدى من عرفت من النساء من قبل ، كانت يدا كبيرة طويلة الأصابع تكسوها طبقة من اللحم ، لكن فيها من الحنان ما يكفى عشرة رجال ... راحت يدها تحنو على يدى برفق وهى ترى نظراتى المتساقطة تحت قدميها فى حيرة وعذاب ، أفقت تماما ، ورحت أنظر الى يدها الخالية من الجمال ، كان فى أحد الأصابع خاتم من النحاس ترك حول الأصابع علامات خضراء ، وسرت نظراتى من اليد الى الذراع والكتف ومن بعده العنق فالوجه تتوسطه عينان دهشتان غاضبتان متطلعتان نحوى بألف سؤال :

« مالك ياسى براهيم ؟! »

ابتسمت فى تخاذل ، واستجابت هى لابتسامتى نصف استجابة ثم سألت :

« كنت سرحان فى ايه ؟ »

« مابتاكليش ليه يا هنية ؟ »

« مالك ياسى براهيم ، ايه اللى شاغل بالك ؟ »

أحسست بالعجز تماما ، أنا لا أستطيع ، لا أستطيع مواجهة الحقيقة .

« سى براهيم ... وحياة النبى على قلبك تقول لى ... فيه حاجة شاغلاك ؟ »

« أيوه يا هنية ... أيوه ! »

قلتها وأنا أتنهد وكأنى أريد أن أفرغ كل ما فى صدرى بين يدها ...

« ماتقولها لى ، يمكن أقدر أشيل معاك ؟ »

قالت ذلك والحيرة تزداد وضوحا فى عينيها السوداوين العميقتين ...

« أنا باحبك يا هنية ... باحبك صدقينى !! »

قلتها بصوت باك مختنق ... فقد كان هذا هو كل ما أحس به فى ذلك الوقت ...

« سى براهيم ... انت مخبى علىّ حاجه !! »

قالتها بيقين والحيرة تزداد اضطراما فى عينيها ، وامتدت يدها لتلتف من جديد حول رسغى ، وضغطت الأصابع برفق ، فقلت وكأنى أذوب :

« أنا باحبك يا هنية بصحيح ! »

ارتدت اليد فجأة ، وانكسرت جفون العينين ، وسرى شبح الهم فى ملامح الوجه ، ومطت هنية شفتيها وهى تقول :

« طب مش حاكل الا لما تقول لى ! »

« أنا باحبك يا هنية ... صدقينى ! »

« أنا عمرى ما قلت عليك كذاب ! »

« أمال ايه اللى مزعلك منى ؟ »

« زى ما أكون غريبة عنك ، مش عاوز تقول لى ايه اللى شاغل بالك ! »

« انت !! »

اغتصبت ابتسامة وأنا أقولها ، فدفع اصرارى بالابتسام الى وجهها دفعا ، وقالت بشفتين منبسطتين :

« يعنى أنا اللى باخليك تسرح ؟ »

« ده صحيح ... أقسم لك بشرفى أن ده صحيح يا هنية ! »

برقت عيناها ببريق خاطف سددته الى عينى وكأنها تدافع عن نفسها بسلاح خفى ... تنبهت الى نفسى ووجدتنى أنا الذى يتحدث مرة أخرى لا القهوجى ...

« سى براهيم ... ايه اللى شاغل بالك !! ... أيه اللى انت مخبيه عنى ؟! »

فى نبراتها شك لم تحاول أن تخفيه ، بل تكاد النبرات أن تحمل اتهاما واضحا ، ولم أشعر بالرغبة فى الدفاع عن نفسى أو التظاهر من جديد ، كل ما أردته فى تلك اللحظات هو الصمت ... لاشىء سوى الصمت ومعه ذلك الاحساس اللذيذ بيد هنية حول رسغى !

كنت أفر منها وأزوغ ... لم يكن فى استطاعتى أن أعطيها جوابا شافيا لسؤال تسأله ، كنت أهرب من صدقها لأتردى فى كذبى مرة بعد مرة ، ووجدتنى أقف عاريا أمام نظراتها المليئة بالشك دون أن أجد فى حياتى شيئا صادقا يشدنى ، ولم يكن هناك سوى طريق واحد ... هو هو

نفس الطريق الذى كنت أحجم منذ جئت معها الى تلك البقعة من شارع الخليج عن السير فيه ... كان خلاصى الوحيد فى أن أخبر هنية بالحقيقة ،أن أقول الصدق !!

وكانت هذه هى رغبتى الحقيقية أيها السادة وصدقونى .. رغبتى العارمة الوحيدة فى ذلك العالم ، أن أخبر هنية بكل شىء ... أعترف لها وأستريح على حجرها وأدفن رأسى فى صدرها وأتشرب بأنفى أنفاسها وأغرق لأذنى فى أحضانها ... لاشىء سوى ذلك ، لاشىء ...

لكنى لم أستطع ...

كففت عن الطعام وأرحت نظراتى فوق وجهها وتركتها هناك ... سألتنى هنية سؤالا ، ثم قالت جملة ، ثم سألتنى سؤالا آخر لكنى لم رد فلم أسمع من حديثها حرفا واحدا ... سمعت صوتها لكنى لم أع ما الذى كانت تريد أن تقوله ، انتابتنى غيبوبة غرقت فيها لأذنى واستسلمت لها مبتسما سعيدا ، بينما الغضب يزحف الى وجه هنية وهى تسدد الى نظرات حيرى ... كانت عيناها تترددان ما بين وجهى والارض والسماء بلا هدف ، وبجزع ... و ... وأخيرا أفقت ، فقد كانت هنية تستعد لمغادرتى !!

« أنا قايمه ... »

« هنية ! »

« اتأخرت ... »

« علشان خاطرى ... »

« أمى تقول ايه ؟! »

« ماليش خاطر عندك ؟ »
« حاقعد لوحدى ؟ »
« مانا معاكى أهوه ! »
« انت مش معايا يا براهيم ! »
« بقى ده اسمه كلام ؟ »
« أبويا يزعق لى ... »
« وأنا يا هنية ؟ »
«انت ؟ ... انت فين يا براهيم ؟ »
« أنا باحبك ! »
« كداب ... !! »

قالتها فى ثقة ويقين وكأنها اكتشفت أمرا لا محل للجدل حوله أو النقاش ... انتابنى الجزع والخوف فأمسكت بيدها وتشبثت بها كالمجنون ورحت أردد متوسلا :

« صدقينى ياهنية ... صدقينى !! »

ولكنها كانت تنظر الىّ بحزن وعيناها مغطاتان بسحابة من الدمع كانت تتلألأ ... أخذت أردد الكلمة مرات ومرات كمجنون فقد رشده ... وكانت ملامحها قد تجمدت وشفتاها انطبقتا فى عزم ثم قالت :

« مش قادرة أصدقك يا براهيم .. يا ريت أقدر ... يا ريت !! »

كنت أحملق فيها بذعر واتوسل :

« وحياة مقام السيدة ! »

أحسست بالذل يركبنى والهزيمة تطوقنى فغلت الدماء فى عروق

ورحت أشدد الضغط على رسغها بلا وعى ...

« ايدى ياسى براهيم ... ايدى ! »

كنت متشبثا بها قابضا على ذراعها ، عندما نادت المرأة من خلفنا على ولدها ، نهض مرزوق عن حجرى مبتعدا متدحرجا فى الحديقة الواسعة الخالية ، فاندفعت الدماء الى وجه هنية ترمق المرأة بجانب عينيها هامسة فى خجل :

« كده كويس يا براهيم ؟ ... يا فضيحتى ، الناس شافونا ! »
« ما يهمنيش ! »
« نقوم بقى ياسى براهيم وحياة النبى على قلبك ! »
« خلينا شوية ! »
« ايدى ... ايدى !! »
« مش قادر أسيبك ، خايف تهربى منى ! »
« براهيم ! »
« هنية ... خليكى معايا شويه ! »

واقتحم بائع المثلجات حديثنا :

« القزايز فضيت يا اسطى ! »
« آهم عندك يابنى!! »

أخذ يرقب يدى الممسكة بيدها وعلى وجهه ظل ابتسامة ، انحنى ببطء وتناول احدى الزجاجتين ، ثم نهض ليدور حولى فى طريقه الى زجاجة هنية على الناحية الأخرى ، ولم أترك رسغ هنية ، ظللت كما أنا أنظر اليها وكأنى تحولت الى تمثال ، وكانت هى تنظر الى وجهى بفزع ثم تحرك رأسها

بين الحين والحين غير مصدقة ، تناول الصبى الزجاجة الأخرى ثم استدار ماضيا وهو يلعلع بصوته فى الشارع :

« المولع ... الملهلب . ! »

وازداد غطاء الدمع فى عينى هنية كثافة ، وراحت هى تنقل البصر فيما بين وجهى ويدها وهى تردد فى صوت خافت حزين :

« براهيم ... حاتفضحنى ، الناس بتتفرج علينا ! »

قلت بصوت حاد صارخ وأنا أضغط على كل كلمة وكل حرف :

« أنا باحبك يا هنية ... لازم تصدقينى ... باحبك ! »

تساقطت نظراتها الحزينة كالدمع ..

« كذاب ... اللى يحب ما يعملش كده أبدا ... أبدا .. »

وأحسست بيدى تتراخى عن رسغها ، أحسست كأنى أقف عاريا هذه المرة أمام ألف عين فقد أصدرت هنية حكمها وانتهى الأمر ... جاءت جملتها الأخيرة وكأنها كلمة القدر لا مفر منها ولا مهرب ... أحسست وكأنى أتمرغ تحت قدميها وأدفن وجهى فى التراب وألطخه كالثكالى بالطين وأنا أصرخ بصوت مستغيث :

« صدقينى يا هنية ، وحياة مقام النبى باحبك ! »

« كذاب ... »

« كنتى لسه بتقولى كلام غير ده ! »

كنت كالمشلول الذى يحاول القفز من فوق سور عال ، كنت أبتسم وفى قلبى يقين أن الحكم قد صدر ولا أمل فى الاستئناف ، تشبثت ببقايا عناد منهار فرحت أردد : « كنتى لسه بتقولى غير كده . بتقولى .. كنت

لسه .. غير كده .. انت لسه . غير كده .. غير كده .. »

« ما كنتش شايفه ! »

هبطت جملتها كالسيف فقطعت كلماتى وبترتها ، فصرخت محتجا :

« شايفه ايه ؟ ... فهمينى شايفه ايه ؟! »

« اللى أنا شايفاه دلوقت ! »

ويتحول الاحتجاج الى غضب :

« شايفه ايه ؟ »

« كفايه كده ... الناس بتتفرج علينا ! »

« طيب كلى ... كملى عشاكى ! »

« مش واكله ! »

« ولا أنا ... والله مانى دايقه ! »

« مليش نفس ! »

« مش حاكل أنا كمان ! »

« وبعدها وياك ؟! »

« أجيب لك كازوزه ؟! »

« انت بتلاقى الفلوس فى الشارع ؟ »

« كل حاجة فداكى يا هنية ! »

« نفسى أصدقك ! »

« أيه اللى مزعلك منى بس ؟ »

« اللى واخد عقلك ! »

« انت !! »

« تبقى ترد على وماتسرحش لبعيد ! »
« كفاية أشوفك يا هنية ... كفاية أشوفك من غير كلام ! »
« براهيم ! »
« العين ماخليتش للسان حاجة يابت ! »
« مخبى على ايه ؟! »
« يابت اعقلى ... »
« لهو أنا مجنونة ؟ »
« أبدا ... أنا اللى مجنون !! »
« سلامة عقلك ! »
« حتاكلى معايا ؟ »
« وبعدها وياك ؟ »
« أنا جعان ! »
« آهو الأكل قدامك ! »
« وطربة النبى من غيرك مانى دايقه ! »
« قول لى اللى فى قلبك ! »
« تكرهى يابت انى أسرح فيكى ؟! »
« طيب كل ! »
« أنا باحبك ! »
« اخص عليك ، كل بقه !! »
لم تنهض هنية ... هذا حق .
واصلت الأكل وابتسمت وهدأ الحديث بيننا ورق ... هذا أيضا

حق ...
لكننا كنا نجلس فوق أشلاء حبنا ... كنت أشعر وكأن شيئا رائعا فى داخلى قد انكسر ولا مجال لاصلاحه !!

كانت رغبتى فى الافصاح لهنية عن أى شىء قد ماتت ... ماتت وقلبى يرف كحمامة مذبوحة ، كنت أموت تدريجيا ، لا تدهشوا — أيها السادة — فقد كان هذا هو أحساسى ، كنت أموت وأنا أتخبط فى دياجير ظلام أغرق عقلى وأن لم يغرق عينى ، أحسست بنفسى أنشطر الى ألف شطر ، أحسست وكأنى أتمزق وأنا أزدرد الطعام بلا شهيه ... ماذا يحدث لو أخبرت هنية ؟ ... سأقول لها : يا هنية أنا مش قهوجى ، أنا صحفى ! ... قد تضحك ، وقد تسخر ... يا هنية صدقينى وحتى اسألى المعلم محمد ! ... ستدهش ، ستخاف ، ستقول : بتكدب على !! ... وسأرد : يا هنية الأفندية اللى قاعدين فى القهوة دول أصحابى ، الدكتور ده صاحبى ... والتلاته .. .. ..

« حاترجع تسرح تانى يا براهيم ؟! »
لم أرد عليها ، رفعت اليها عينى ولكنى لم أرها ...
« مالك يا براهيم ... أيه اللى جرى لك تانى ؟! »
لم أعد أمضغ ، ولم أعد آكل ، ولم أعد أرى ، وأحسست انى لا أستطيع التنفس ... كل شىء حولى يسكن وتميد بى الارض وتغلف الدنيا من حولى سحابة داكنه دثرت كل شىء وعزلتنى عن العالم ، اختفت الأصوات والأشياء ... حتى وجه هنية لم أعد أراه ... وأحسست انى وحيد !

« براهيم ! »

ماذا أقول لها ؟ ... بماذا أرد عليها ؟!

« براهيم ! »

ليس هذا هو اسمى يا هنية ... ليس هذا هو اسمى ...

« المعلم محمد حيسأل عليك ! »

هو ليس معلمى وهو لايستطيع لى شيئا ...

« أنا قايمه ... أنا راجعه ! »

حتى القدرة على الكلام فقدتها ... انى افقد كل شيء فى هذه اللحظة .. كل شيء ... ولا مفر !

ومضت ساعة ، وربما دقيقة ، أو حتى ثوان ... لست أدرى ...

انجابت السحابة عن الدنيا من حولى ، وبدأت الأشياء تتضح لعينى ... كانت السماء فوق داكنة ، والنجوم هناك ، بعيدة ، بعيدة ، بعيدة ... غسلت وجهى نسمة صيف دافئة ، وأحسست برغبة حارقة فى البكاء .

وكنت أجلس وحدى بعد أن مضت عنى هنية ...

لا أحد معى ...

عيناى تجوسان فى الظلام والشارع ، ولم أر بجوارى سوى حذائى مع بقايا طعام لم يؤكل ... وهنية ليست هناك ...

كانت قد اختفت .

١٨ ــ أيها السادة ...

ها قد وصلنا الى النهاية ، وليس عندى بعد ذلك شيئا لأقوله ولأدلل به على كذبى ... لقد وجدت نفسى وحيدا فى شارع الخليج ، أتلفت حولى فى ضياع بعد أن اختفت هنية ، لم يكن أمامى سوى العودة للدرب من جديد ، لم يكن أمامى طريق سوى هذا ، دسست قدمى فى حذائى لكنى لم أستطع الحركة لدقائق ... لم أكن أريد العودة فى الواقع ، فلماذا أعود ؟! ... وما الذى أريده من هؤلاء الناس ؟ ... وماذا أقول لهم ؟ .. ماذا أقول ؟ ...

لكنى بالرغم من ذلك عدت الى الدرب ، كان من المستحيل أن أختفى هكذا فجأة .. رحت أجرجر قدمى فى طريق العودة وكأنى أحمل على كتفى أطنانا من الهم ، وعندما وصلت اليه كان الظلام قد لفه تقريبا ، كانت الحلوانية قد أغلقت دكانها واختفت ، وكان عمران قد أوصد مكتبته ، وشبح المعلم كامل يبدو لى من بعيد وهو يذوب عند نهاية

الدرب ، وخلفه تماما رأيت المعلم فتح الله وزوجته ، وكانت هنية هناك ... وكانوا جميعا يذوبون فيما خلف الجامع من ظلام دامس ... لحظة وراء لحظة ولم يعد فى الدرب سوى أضواء مقهى أبو النجا الكائن عند ناصية عطفة النيدى ، لا حس ولا صوت ولا زيطه ولا أحاديث هامسة فقد أظلمت النوافذ والشرفات واختفت النسوة والفتيات ... وما ان اقتربت من المقهى حتى سمعت صوت صديقى عادل يزعق بكل ما فيه من انفعال :

« مفيش حل غير كده .. العضو الفاسد يجب بتره !! »

بالرغم من ذلك كانت رءوس أصدقائى ملتوية نحو مدخل الدرب تترقب عودتى ، فى عيونهم نظرات تبرق وتتطلع والتماثيلجية فى مكانهم حيث تركتهم ، لم تتبدل جلستهم ولم يتغير فيها سوى انهم كانوا يبدون لعينى أكثر اقترابا من بعضهم البعض والتصاقا ... تعلقت عيناى بالطرف الآخر من الدرب حيث اختفت هنية ... لكنها كانت حلما وانقضى ، فخفق قلبى بالحنان ... راودتنى نفسى فى اللحاق بها ، ولكن هيهات أيها السادة ، هيهات أن نحلم من جديد ، كانت قد ذهبت وانتهى الامر ...

صاح محروس — وكان لا يزال جالسا — فانداح صوته فى الدرب الساكن كالنغم الحزين :

« براهيم يا براهيم يا نوارة الحته !! »

حاولت اغتصاب ابتسامة لكنى لم أستطع ، كنت موقنا أن اللعبة قد انتهت .. وأن هنية قد اختفت ، وأنها لن تعود ..

بدا لى الدرب قفرا لاحياة فيه ، المعلم محمد غادر مكانه خلف

النصبة ووقف بباب المقهى وصوت الوابور قد كف فترك مكانه فراغا عميقا ، كسكون شديد الأسن ... ومحروس ينهض وهو يلملم أطراف جلبابه ثم يلقى بها الى كتفه وهو يدلف الى العطفة صائحا من جديد :

« تصبح على خير يابراهيم ... ابقى بدر بكره ! »

والمعلم ممدوح وحسن الصغير يجمعان المقاعد والموائد ، وأصدقائى يحملقون فى وجهى بدهشة وتطلع ... وعادل يهمس بصوت متلعثم :

« يالله بينا بقى يا ابنى ... انت ناوى تبات هنا والا ايه ؟! »

وهمس سمير وهو ينهض :

« تعالوا نستناه على الناصية ، بلاش حد يعرف اننا معاه ! »

« حسابك كام ياسى زفت ؟! »

وذكرت لعادل حسابى ، فأخذ يعد النقود وهو يهمس مقتربا منى :

« انت عملت ايه فى البت يابن القديمة ؟ »

انقبض قلبى ونزف بالألم ولم أرد ، فعاد يردد فى اصرار :

« ماتتكلم وتسيبك من شغل الاستهبال ده !! »

أحسست بالغثيان لكنى تمالكت نفسى وتناولت منه النقود وتمتمت بكلمات لم أعنيها ، ثم انتقلت الى حيث كان التماثيلجية وكانوا يجمعون من بعضهم ثمن البيرة ، والأسطى فاروق يخاطبنى من مكانه متثائبا فى راحة :

« اننت ساكن فين يا براهيم ؟! »

« فى الجيزة يا اسطى ... فى الجيزة ! »

قلتها بصوت خافت ونبرة مرتعشة ، وكانت هذه هى المرة الاولى التى أقول فيها الصدق ، ففاجأنى الأسطى عبد السلام قائلا :

« عال ... نبقى نرّوح سوا يا براهيم ! »
وقال الأسطى فاروق :
« قلت ايه يا براهيم ... نستناك فى الورشة بكره ؟ »
« وصاح المعلم محمد ضاحكا وكان يتسمع للحديث من بدايته وهو يرقب النقود بشراهة :
« جرى ايه يا اسطوات ، انتو حتاخدوا الصنايعى بتاعنا والا ايه ؟ »
وابتسم الجميع وضحكوا ، ثم تحرك التماثيلجية نحو الطرف الآخر للدرب ، والاسطى عبد السلام يردد بصوت واثق خفيف :
« أنا مستنيك على الناصية يا براهيم ... علشان نتفق على بكره كمان !! »
لم أرد عليه ، رحت أعد النقود وأسلمها للمعلم ممدوح ... و ...
ومضت — أيها السادة — دقائق أغلقنا فيها المقهى ، وكان المعلم محمد يقول :
« جاى بكره يا براهيم ؟ ... من النجمة ، مش كده ؟! »
ووجدتنى أقول على الفور وبلا تردد :
« لا يا معلم ... »
توقف ممدوح عن عد المال ورفع نحوى رأسه دهشا ...
« لأ ازاى ؟! ... »
« كفايه كده !! »
قلتها فى اقتضاب ، فتعلق حسن بطرف الجلباب وهو يقول :
« والنبى تيجى بكره ياعم براهيم ! »

التماثيلجية عند طرف ، وأصدقائى عند الطرف الآخر للدرب ... هؤلاء فى انتظارى ، وأولئك أيضا فى انتظارى ... والنقاش لا يطول ، ويكف حسن عن الحاحه وهو يرانى أخلع الجلباب فيبدو من تحته البنطلون ، طلبت القميص من المعلم محمد فجاءنى به فى صمت وحزن ... « ليه كده بس » ... سلمته الجلباب وأعطيته الطاقية ووقفت قبالتهم وجها لوجه وقال المعلم ممدوح وهو يدس المال فى جيبه دون عد :
« برضك محكم رأيك ؟! »
« كفايه كده يا ممدوح .. كفايه ! »
وقال المعلم محمد وهو يطفىء النور فيسود الظلام ...
« ايه اللى حصل بس ؟ ... »
ولا أرد ...
ويعود الى الحديث بنبرات تقطر أسى :
« انت باين عليك تعبت من أول يوم !! »
وتذكرت ساعتها فقط أن عشرين ساعة مضت منذ جئت الى الدرب فى الصباح ، دسست أصابعى فى شعر حسن الذى كانت عيناه تبرقان فى الظلام فى غير فهم أو تصديق ... كان لسانه قد الجم تماما وهو يرانى بالقميص والبنطلون ، وواصل المعلم محمد الحاحه :
« لولا الملامة كنت قلت لك استنى معانا على طول ! »
ابتسمت ومددت له يدى مصافحا دون كلمة ، فاندفع يضمنى الى صدره فى قوة ، ثم قبلنى قائلا :
« ابقى افتكرنا يا أستاذ ! »

وكانت فى عينيه دموع لم يحاول اخفاءها ، ورحت أقاوم اندفاع الدمع من عينى وأنا أصافح ممدوح ، وأقبل حسن ... ومضى بهم الركب فاختفوا بدورهم فى الظلام ، وكنت لا أزال وحدى ، أمام المقهى ، والدرب كله خال ... ليس هناك سوى قطة تموء بجوار الحائط ، وفأر يفر من شق الى آخرفى هدوء وطمأنينة وكأنه يؤدى زيارة عائلية ... انتابتنى الحيرة للحظة وتنفست ملء صدرى وأنا أمسح دمعى المنهمر !

وزعق الأسطى فاروق من طرف الدرب : « يا براهيم » ...

وزعق عادل من الطرف الآخر : « يا صالح !! »

ولم يطل ترددى أيها السادة ... وجدت نفسى أتجه نحو أصدقائى دون كلمة ...

وكان واضحا أنهم لا يزالون يتناقشون وأنا فى الطريق اليهم كان واضحا انهم يدورون فى نفس الحلقة المفرغة ... فقد سمعت عادل قبل أن أصل اليهم بعدة خطوات يصيح فى انفعال مخمور :

« ده عضو فاسد يجب بتره ... يجب بتره !! »

« تمت »

الكذّاب

هذا الكتاب .. تجربة حقيقية عاشها الكاتب فى أحد الأحياء الشعبية مدعياً أنه « جرسون غلبان » كذب على أهل الحى البسطاء ليعيش معهم تجربة ينقلها بقلمه .. فصدقوه ..

و يودع الكاتب هذا الشارع ، يودع رجاله وفتياته وأطفاله بعد يوم كأنه دهر نبتت فيه بذور المشاعر الصافية الصادقة البسيطة ، وأثمرت محبة نقية لا تعرف الزيف والكذب . وعندما يتفجر كل هذا الصدق من حوله وهو الذى تسلل إلى حياة هؤلاء البسطاء فى ثوب « كاذب » ، يضغط عليه احساس غريب ، و يود لو يصرخ بأعلى صوته معتذراً لكل هؤلاء البسطاء الذين صدقوه وبذلوا له مشاعرهم خالصة صريحة .

يود لو أطلق صرخته قبل أن يغادر هؤلاء البسطاء .. « أنا كذاب » .. لم تطاوعه نفسه أن يفعل وهو بين هؤلاء الناس الذين يتحركون بصدق .. ويحبون ببساطة وصدق .. فجعل الصيحة المحبوسة فى نفسه عنوان تجربته .. أقصد عنوان كتابه هذا الذى بين يديك عزيزى القارىء ..

ابوللو للنشر والتوزيع